
سلسلة الأعمال الإبداعية
توراة الفيطوان
إسلام عامر على
الطبعة الثالثة

اسم الكتــاب : **توراة الفيطوان .**
اسم المـؤلف : **إسلام عامر على .**
اسم الناشــر : **رابطة الكُتاب العرب .**
رقم الإيداع : **٢٠٠٢٨**

العمــل الأول

صاحبك الحياة و الموت



ع

عروس هى لبنان ، ببساطها الأخضر ، الذى يتمدد فى رعونةٍ ، على سفوح جبالها الشاهقة ، و عند أحد هذه السفوح الجبلية ، جلس ثلاثة من الشباب ، يتقاذفون الكلمات فى مرح و سعادة ، و قد علت وجوههم الإبتسامات العابرة ، التى تخلقها العبارات اللحظية ، و يوأدها الزمن فى سرعة ، ليُعيد لصفحاتِ الوجوهِ سكونها ، الذى يُشبه سكون صفحة الماء الراكدة .

كان الأول ، طويل القامة ، فاره الطول ، عريض المنكبين ، له رأسٌ ذهبى الخصلات ، أبيض البشرة ، كثيف الحواجب ، على حين كان الثانى مُتوسط الطول ، قد لوحت الشمس بشرته ، لتكسبها بعض السُمرة المُحببة للنفس ، و قد كان وجهه ذو ملامح طفولية جذابة ، و له إبتسامة رقيقة ، تصنع أخدودًا حادًا فى صفحةِ وجههِ ، يمتدُ من شحمةِ أذنهِ اليُمنى ، حتى شحمةِ أذنهِ اليُسرى ، فتزيدهُ طفولة و صفاء على براءة ملامحه .

و كان ثالثهما ، مُتوسط الطول ، أشهب البشرةِ و الشعر ، كأن الشمس خجلت من أن تمنحه بعض أشعتها ، لتصبغ بشرتهُ الباهتةِ ، و كان له لحية بيضاء كالثلج ، يتخللها بعض الشعيرات الذهبية النافرة ، كأنها تعلن أحتجاجها على سُكنى هذه اللحية ، لكونها شاذة الوجود ، بين

شعيرات شهباء .

كان الثلاثة فى مُستهل شبابهم الغض ، فكان الواحد منهم لم يتعد منتصف عقده الثالث .

تشدقت الأفواه بعشرات العبارات ، بل المئات منها ، و هى تكشف عورة و حياء العديد من الموضوعات ، التى هُتك عرضها على لسان هؤلاء الشباب ...

الفن .. و كيف أن بيئتهم هى مُلهم لكل باحث عن الجمال و الطبيعة الخلابة ، و ملاحة المناظر و سحر الأصوات المُتدفقة من أغادير المياه الصافية .

اللهو .. و الذى أنفرد فى الحديثِ عنه ، صاحب الخصلات الذهبية ، و الذى أنتفخت أوداجه ، و هو يتفاخر بمهارتهِ ، التى لا يشق لها غبار فى مُمارسة شتى أنواع المُقامرة ، و مُغامراتهِ مع المومسات ، صاحبات الرايات الحُمر ، و عن لياليه التى يقضيها فى الملاهى الليلة ، التى تشتهر بها لبنان ، كما تشتهر بأشجار الأرز .

- و ماذا عن آخر مُغامراتك أيها الهُمام ؟

تفوه بهذا السؤال الشاب الملتحى ، صاحب الخصلات الخجلى من نصاعها ، الذى يُضاهى الثلوج بياضًا ، على حين أجاب الفتى الآخر ، بأنه قضى ليلته كما يجب أن يقضيها شاب مثله ، يتمتع

بعنفوان شبابه ، و قد نجح فى الإيقاع بأحدى الراقصات ، العاهرات ، من صاحبات الجسد الذى يُلهب جسدك بسياط ناره المُتأججة ، و التى تداعب رجولتك فى شراهةٍ ، و كيف نجح فى استدراجها إلى منزلهِ ، مُعتقدًا أنه غرر بها ، و هو لا يعلم أنه هو المُغرر به ، فالمرأة لا تمنح نفسها لرجل إلا إذا شاءت ذلك .

- وماذا عنك أنت يا قهار ؟

و كان قهار هو الفتى الأول ، صاحب القامة المديدة ، و المنكب العريض ، الذى وجم و شرد ، عندما تلقت أذناه هذا السؤال .. ماذا عنه ؟ .. ماذا عن علاقته بالجنس الآخر .. النساء ؟ .. ماذا عن مغامراته مع بنات حواء ؟

الإجابة .. أنه شاب بسيط ، محروم مثل آلاف البشر من امرأة مثل التى عاشرها صديقه ، يمكنها أن تمزقه بنظراتها ، و أن يغوص فى جسدها البض .. أن يقتحم هذه المملكة البيضاء من المسامات المشعسة بالزغب الشهوانى .. شاب محروم من سماع مثل ذلك الصوت الداعر ، الذى يجذب الرجال ، لينساقوا خلفه كالأبل .. لا ضابط و لا رابط يقيدهم .

عاد قهار لعالمهِ مرة ثانية ، على آثر ألحافِ صديقه عليه بسؤالهِ ، فما كان منه إلا أن نفى عن نفسهِ مثل هذه المُغامرات ، مُتعللاً بكونها

رجسًا ، و عملا يُدعمه الشيطان بدعائم الخطيئة و المعصية ، و فى قرارةِ نفسهِ التى تاقت لمثل هذه المُغامرات ، لعن الحظ العاثر الذى صنع بينه و بين عالم الشهوات حاجز .

-و ماذا عن الحرب و عن العدو الذى سلب الأحلام من مآقينا ؟

تفوه قهار بهذه العبارة فى لا مبالاة من أمره ، و هو لا يعىّ أى حرف منها ، و كان غرضه من قصف هذه العبارة هو تغير دفة الحديث ، عن ذلك الموضوع الذى يمس شغاف رجولته ، التى لم تختبر بعد .

و لكنه فوجئ بالصمت ، يرسم آياته على وجهىّ صديقيهِ ، و كلاً منهما يفر بنظراتهِ عن الآخر ، حتى لا تتلاقى فى نقطةٍ عجزت نفساهما و نفوس شعبهما عن التصدى لها .

و هنا أقنع قهار خلاياه الرمادية ، بأن تعيد التبصر فيما تفوه به لسانهِ ، فأيقن أنه مس جُرحًا لم يندمل بعد ، جُرح يتسع و يغور كل يوم و كل ساعة ، على آثر سياط يُلهبه ، و يُمزق أوصال شراينه .

أيقن قهار أنه حفر قبرًا ، لتقبر فيه إبتساماتهم الصرعى فى صمتٍ و سكون ، كما يُدفن شهدائهم ، فى صمتٍ و سكون ، ليحل الوجوم و الخزى محلهما .

ظلت نفوس الشباب الثلاثة ، حائرة فى البحثِ عن إجابةٍ للسؤال ، الذى طرحه قهار دون دراية منه ؟

ماذا عن الحرب التى تنهك جمال لبنان ، و تهتك عرض الطبيعة فيها ؟ .. ماذا عن العدو ، الذى سلب الأحلام و الأمانى من صدورهم ، لتحل محلها الآلآم و الخشية من الغد ؟

هل كُتب عليهم ، و على بنى وطنهم الرضوخ لهذا العدو رضوخ الأبل لراعيهم ؟

كان الصمتُ يُطبق على المكان الذى يُحيط بهم ، كأنه يُشاركهم رثاء حالهم ، و حال لبنان كلها ، و لكن صمتهم لم يدم طويلاً ، فقد نهضت النظرات من خمولها ، لتحملق فى شبح أسود ، بدا لهم من بعيد ، و أرهفت الآذان لذلك النحيب ، الذى غزا العقول ، ليُعبر عن آنات و عذابات شخص ما يتألم من حاضرهِ .

و بدا الشبح يقترب منهم رويدًا .. رويدًا ، فى خطى ثقيلة ، أثقلتها الأحزان .

- صافية .. أنها صافية .

صاح الشابان المُلازمان لقهار بهذهِ العبارة فى دهشةٍ ، على حين علا حاجبىَّ هذا الآخيرُ فى دهشةٍ عارمةٍ ، و هو يُحملق فى الوافدِ ، الذى لم يكن سوى امرأة ، غريبة الأطوار ، ترتدى ثوبًا أسودًا ، مهلهل ، عارية القدمين ، شديدتىّ الإتساخ ، و قد كان لها وجه اختفى بياضه الناصع ، خلف طبقات من القاذورات و الأوساخ .

كان وجهها مُثخن بالجراح الشديدة ، و قد تجمدت الدماء اللزجة ، على هذه الجروح ، كأنها تنعت برودة هذا الوجه ، الذى تسبب فى سكونها بأقسى العبارات ، و كان على صدرها يرقدُ طفلٌ صغيرٌ ، لا يتعد عمره بضعة أشهر .

كان عارى الجسد ، اللهم من ذراع أمهِ الباردة ، التى تحاول أن تدثره ، و تقيه عذابات الهواء القارس .. كان مُتسخه ، عيناه لم تكف عن البكاء ، و فاهه لم يكف عن الصياح ، و أنفه لم يكف عن إهدار المُخاط .

كان كل ما فيها يجذب الأنتباه .. مظهرها .. الحزن المرسوم على وجهها .. البؤس التى تعانيه .

كل شئ يصرخ ، ليُعلن عن كيان آل للسقوط و الأنهيار .

كان مرأى هذه السيدة ، يبعث فى نفس قهار عجيب المشاعر و الأحاسيس ، التى مُزجت ببعضها البعض ، لتولد بسريرتهِ شعورًا بالثورة ، و الشفقة ، و القرف .

الثورة على من فعل بهذه المرأة كل هذا ، و سبب لها هذا الحزن ، و جعل السعادة تتداعى على شفتيها .

الشفقة على هذه السيدة و نساء بلده كلهن ، مما يحدث لهن على يد العدو الجافل .

القرف من صمتهم و خشيتهم من بطش رعديد ، خامل .
عجيبٌ المشاعر و الأحاسيس ، التى مُزجت ببعضها البعض ، لتولد بسريرته شعور بالتضاءل ، على الرغم من كونهِ كيان كامل ، حر .

- أتعرفاها ؟ .. أتعرفان من تكون هذه المرأة ؟

- بالطبع نعرفها .. و من فى لبنان كلها لا يعرف صافية ، و قصتها مع بيل آريل .. صاحب صك الحياة و الموت فى جنوب لبنان

تسارعت العبارات ، لتغزو مسامع قهار ، كأنها الشلال الجارف ، الذى يغزو السهول اليانعة ، فيدمرها .

صافية ، و قصتها مع بيل آريل ؟ .. أنه سمع هذا الاسم كثيرًا .. كثيرًا جدًا ، و كان يرتبط هذا الاسم بكل كارثة تصيب بلده ، أو قذيفة تصيب جنوب لبنان .. لقد سمع هذا الاسم كثيرًا ، و لكنه لم يسمع عنه أنه صاحب صك الحياة و الموت فى جنوب لبنان .. و لِمَ لا يكون هو صاحب صك الحياة و الموت ؟ .. فبضربهِ جنوب بلاده ، يُؤشر على صك الموت و الإعدام على أهل بلده ، و عندما يعتق الشمال يمنحهم صكًا بالحياة .

- و ما قصة هذه المرأة مع هذا الآريل ؟

- يبدو أنك تحيا بعيدًا عن هذا البلد يا قهار ؟

- لا تلحف على أرهاقىَّ بمداعباتك الركيكة هذه .. تحدث .

و يا ليته ما ألحف هو عليه بالتحدث عن قصة هذه المرأة ...

- إنها داعرة .

-داعرة ؟!! .. يا لهول شفقتيَّ عليها ! .. و لكن كيف تكون داعرة ، و لسان حالها لا ينطق بحال الداعرات ، المومسات ؟

-بالفعل .. كانت كالغزال الجبلى ، الشارد ، الذى ينطلق هنا و هناك ، كالفراشة ، التى تنشر عبقها على الزهور .. كانت السعادة تدب فى أوصال من يراها فقط ، و يشعر أنه أسعدُ رجلٌ فى الدنيا ، فما بالك بمن يُحدثها أو من تعشقه ، و تسبغ عليه مشاعرها ؟ .. لابد أنه سيخر صريعًا من فرطِ السعادة .. كان يشتهيها كل رجال لبنان .. الشباب منهم ، و الكهول .. العاذب و المُتزوج .. كانت تغرد لها الطيور و تتفتح لها الزهور ، و ترقص لها الجبال ، و تشرب أشعة الشمس لونها الذهبى من جدائل شعرها السبط ، حتى ...

- حتى ماذا ؟

-فى ذات يوم اقتحم عليها جندى إسرائيلى منزلها ، و هى فى أحضان والديها .. و كان هذا الجندى الإسرائيلى هو بيل آريل .. صاحب صَك الحياة و الموت .. و قد مارس وحشيته و مقامرته بأرواح البشر ، و أمر بذبح الوالدين ، كما تذبح الشاه على قارعة الطريق المُعَبد .

هتف قهار فى استهجان مزيج بالفزع :

- ذبحها ؟!!

- و منذ متى و الخنازير تعف نفسها عن الوحل .. و استمرارًا فى وحشيتهِ ، أغتصب صافية ، و هتك عرضها على مرئى من جنوده ، الذين نالوا منها ، بعدما فرغ منها قائدهم بيل آريل .

- هتك عرضها .. أغتصبها ؟!!

- أغتصبها كالحمار الذى يعتصر أنثاه .. و بعد عدة أشهر ، وجدت نفسها حُبلى من مغتصبيها ، فزادت هذه الطامة ، من تعثرها فى لجاجةِ أحزانها ، و قد فاحت رائحة جريمتها بين الناس ، الذين علموا بفضيحتها .

- جريمتها ؟!!

- هكذا أطلق الناس على فعلتها التى أقترفتها يداها .

- و تسابقت الشهور ، تلتهم بعضها البعض ، حتى وضعت حملها فى سكون ، و تعالت رائحة الفضيحة إلى عنان الناس و الأهل ، حتى شملت معظم لبنان .. جنوبها و شمالها .. و ما كان من الناس إلا أن نفروها من بينهم ، كأنها وباءٌ ، وهدموا بيتها و حرقوا مُتعلقاتها ، لتسكن العراء .. و ها هى الأن ، هائمة على وجهها ، لا تعرف لروحها وطن ، ترسو فيه ، كما أنها لا تعرف من هو والد

طفلها .. هل هو صاحب صك الحياة و الموت بيل آريل ، أم جنوده ؟
أخذ عقلُ قهار يرتجُ بين عظام جمجمتهِ ، كأنها لعبة بين يد طفل صغير ، يلهو بها ، بأن يضربها فى عرض الحائط ، فأخذ يُحدق فى صافيةِ ، خاصة فى عينيها المطموستين ، بعينيين زجاجيتين ، و روح تشهق فى عناءٍ ، باحثة عن إجابةِ العديد من الأسئلةِ الحائرة فى نفسهِ ، هائمة فى أوصاله .

لقد نبذها الأهل و هى المظلومة ، المدحور حقها ...

جلدوها بسياط العار ، و هى مجلودة بسياط الاستعمار ...

نفرها الأهل ، و احتضنوا مُغتصبها ...

جعلوا الشرف لا ثمن له ...

عجبىً على الظلم الذى يفوح من قلوبٍ قد ذاقت للظلم مذاق !

استيقظ قهار من أفكاره السوداء ، ليجد نفسه يجلس وحيدًا ، فتساءلت عيناه فى حيرةٍ عن صديقيهِ ، و سرعان ما جاءته الإجابة على هيئة همهمات و صياح ، فتحول نظره إلى مصدر هذا الصياح ، ليجد أمامه حشد حول تلك المرأة ، التى قُهرت فى عصر الغاب .

و عندما أمعن قهار بصيرته ، لعله يخترق ببصره حجب هذا التجمهر ، فتمثل أمام عينيه مشهد المرأة ، و هى تخرج سكينًا حادًا ، من طيات ثوبها الناحل ، المُهلهل ، و تدنيه من عنق طفلها ، و ...

ذبحته ...

ذبحته بكل قوة و صلابة ، كأنها تنتقم من مغتصبيها فى صورة طفلها ، و ألقته على الأرض الخضراء ، و هو مُدرج فى دمائهِ الورديةِ ، التى سرعان ما كونت بركة صغيرة ، و رحلت الأم بعيدًا عنه ، كأن شيئا لم يكن .

شعر قهار بأن أطرافه قد تصلبت ، و قد تسللت البرودة إلى عقلهِ ، و بدأ الظلام يزحف إلى رأسهِ .

لقد عقرت الأم وليدها .. ربما أرادت أن تطهر نفسها من الدنسات التى حاقت بها ، حتى تبرأ أمام الناس ...

ربما أرادت أن تغير سيناريو حياتها ، لتضع له نهاية جديدة من صُنعها هى ، و ليست من صُنع صاحب صك الحياة و الموت بيل آريل .

ربما لأنه طفلٌ جاء دون رغبتها .

ربما لأنها أرادت أن تتخلص من لقب داعرة ، الذى وصمها به نساء أهلها و عشيرتها ...

و لكن فى كل الأحوال ، فهى عقرت وليدها بيديها ، كما تعقر الشاه .. أمٌ حرمت نفسها من وليدها ، بمحض إرادتها .

و لم يشعر قهار بنفسهِ و هو ينهض من ركوده كالليث ، و قد قهر جموده و سلبيتهِ ، و هو يصيحُ فى الحشدِ المُتجمهر حول جثة الطفل .

- أيها الناس .. السوسُ ينخرُ فى عذريتنا .. يهتكُ شرفنا .. يستحلُ حرماتنا .. يتلذذ بدمائنا .. لا سلام مع يهودى .. صافية على حق ، و ما فعلته هو الصواب .. لا ابناء حرام .. لا ابناء من سفاح .. لا أنساب لليهود على أرض عربيةٍ .

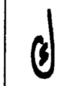
فاق قهار من جذوةِ حماستهِ ، ليجدُ نظراتُ الناس تنهل من وجههِ ، و هنا أقنع خلاياه الرمادية بما قاله ، و خطورته ، فنكس رأسه فى هدوءٍ ، و أولى الحشد ظهره المحنى ، و سار مُبتعدًا عنهم ، و قد تسلله شعورٌ غريبٌ ...

أنه أصبح هرم ، عجوز ، لا يصلح للدفاع عن الحق .

العمـل الثانى

امــرأة الحطــاب





كان يُصدر تأوهات عنيفة ، حارة ، كأنها لهاث البراكين الثائرة ، و قد بدا حِمله من الحطب ، كأنه جبل شاهق ، فتك عظـام هامتـه ، و هـو يهبـط التـل بخطوات حريصة ، ثقيلة ، و قد كان رجلا ضخمًا ، شاهق الطول ، عريض المنكبين ، و كان له رأس ضخم كما الثور ، يعلوه شعيرات سوداء كقاع البحر ، خشنة ، أشعسها ، و كانت بشرته شديدة السُمرة ، كأنها الطين الأسود ، و البثور تحتل هذه البشرة السوداء ، لتكسوه مزيدًا من القبح على قبحهِ .

و كان يكسو جسده الضخم ثوبًا من قطعةٍ واحدة ، قد لطخه عدد من الرقع المتباينة الحجم ، و قد بدا أن الثوب لا يناسب صاحبه ، فقد كان يلتصق بجسده كأنه جلده الأسود .

أخذ الحطاب يقترب من كوخ صغير ، بدا على مرمى البصر ، تاركًا خلفه تلك الغابة ، التى تعلو التل التى حصل منها على الحطب و أخذت قدمه تحمله تجاه ذلك الكوخ الصغير ، الذى كان عبارة عن حجرة صغيرة من الخوص و القش ، التى لا تعول صاحبها ، و لا تحميه صيفًا من حرارة الشمس ، و لا شتاءًا من الماء المُنهمر و الزمهرير .

مثل الحطاب أمام كوخه الصغير ، ثم أودع حملـه الأرض ، و أخذ

يطرق باب الكوخ فى هدوء ، و مع كل طرقة كان الكوخ يهتز ، كأن زلزالاً هزيلاً يُداعب أعواد الخوص به .

و صدر من داخل الكوخ صوتٌ أنثوى ناعم ، كما النغم أو غناء الطيور ، و هى تتساءل قائلة :

ـ من الطارق ؟

ـ أنه أنا زوجك .

ترجل الحطاب قليلاً ، قبل أن يلمح شقا فى الباب ، تبع ذلك سماعه لخطوات واهنة تدب على الأرض ، و قد استشف أن زوجته فتحت له الباب ، فحمل الحطب مرة ثانية على عاتقهِ ، ثم دفع الباب فى رفق بما يكفى لمروره منه ، و ألقى بالحطب فى ركن منزوى من الكوخ ، و هو يتلعثم ببعض الكلمات المتزمرة :

ـ لقد كان يومىٌ مرهقًا .

ـ هون عليك يا زوجىٌ العزيز .. هذه سُنة الحياة .

هم الحطاب أن يخلع الرداء الذى يلتصق بجسده ، كأنه يُحاول أن يتوارى عن أعين الناس ، حتى لا يُنسب لصاحبهِ ، قبيح الوجه ، لولا أن قاطعته زوجه فى تساؤل طل من عينين يحملان فى جوفهما نهر جارف من الحب و الحنان :

ـ ماذا ستفعل ؟

تطلع الحطاب لزوجهِ ، بعينين مُرهقتين ، نجحتا فى إحتواء جسدها العارى .. نعم ، جسدٌ عارى تمامًا ، يُشبه جسد الطفل الذى لم يمر على مولده سوى لحظات ، جسدٌ شاهق البياض كما الثلج ، قد شرب ببعض الحمرة ، فعكس لون وردى يشع من كل خلية فى جسدها .

جسدٌ عارى ، ينضح بممسات الأنوثة الصارخة ، الكافية بأشعال رجولة كوكب بأكمله .. جسدٌ نحيف الكسم ، دقيق الأعضاء ، زبرجدى الملمس ، بهى الطلعة .

و كان ذلك الجسد المنطوى على ذاتهِ ، يرتجف فى صمتٍ ، مُحاولا طمث كل رعشة تحط عليه ، على حين قال الحطاب و قد رسم على وجههِ إبتسامة حاول أن يجعلها جذابة ، و لكنها باءت بالفشل ، و لم تنجح أن تخفف من قباحةِ وجههِ :

- حتى تدفأ أعضاءك .. أننىَّ ألمحُ فيها صرخة أحتجاج ، لأنىَّ نزعت عنها الثوب الذى يمنحها الدفء و الطمأنينة .

رسمت الزوجة إبتسامة هادئة ، و هى تتناول الثوب عن زوجها ، الذى أصبح هو الآخر عارى تمامًا ، كما كان يجول فى الطبيعة العارية ، لا كساء لكليهما .

و قد كشف الثوب عن جسد شديد السُمرة ، غليظ الجلد ، شديد التشوه ، مُترهل البطن و الصدر ، فاره الطول ، شديد العرض ، على حين

قالت الزوجة ، و هى ترتدى الثوب ليستر جسدها البض :

ـ و ماذا عنك أنت ؟

ـ ألم ترهقى من تكرار هذا السؤال كل يوم .. جسدىَّ كما ترين به طبقة من الشحم و اللحم ، كافية لأن تقينىَّ من قيظ الصيف و زمهرير الشتاء ، و لا يهم أن أستر جسدىَّ الذى أصبح باليًا ، مشوهًا ، المهم هو أن أحافظ على جسدك أنت ، فأنت كنزىَّ الحقيقى ، لقد حرمنىَّ الله - عز و جل - من نعمة الثراء و الهناء ، و لكنه وهبنىَّ إياك لتكونى أنتِ ثروتىَّ التى أتباهى بها ، و تكونىَّ أنتِ هنائىَّ و نعيمىَّ .. و يكفى أنك تمسين و تصبحين كل يوم على وجه دميم مثل وجهىَّ ، و كفى لهذا الجمال ، و هذا الجسدُ البللورى أن يُعاشرُ قبحًا مثل قبحىَّ ، و جسدًا بهائمى مثل جسدىَّ .

ترقرقت الدموع الزجاجية من عينى الزوجة ، التى أحتضنت رأس زوجها ليختفى داخل صدرها ، لتعانق شفتاه السوداوتان كما الليل ثدييها المضمورين فى خشوع ، على حين قالت الزوجة .

ـ من قال أنك قبيحٌ أو دمث الوجه .. أنت ملاكىَّ الحارس .. أنت من وهبنىَّ الله الأنوثة من أجلهِ .. أنا نعيمك فى الدنيا ، و أنت جنتىَّ فى الآخرة .. أتعلم أن شعرك الأشعث هذا ، و هذه الخصلات المنتصبة فى وجل ، هما من يبثـان فى قلبىَّ الطمأنينـة ، أشعر كأن

كل خصلة مُنتصبة من شعرك هى سيفٌ مُتأهب للذود عنىَّ ، لقهر أى دخيل بيننا يُحاول أن يُدمر حياتنا .. أتعلم أن نظراتك الجامدة هذه ، هى ذلك الرقيب الذى يحرسنىَّ فى غيبتك و يُردعنىَّ عن الإنحراف و السقوط .. أنت من يُبخس من قدر ذاتهِ .. أنت ذلك الحُلى الذى أتحلى به ، لأكون أميرة على هذه البلاد ، فلا أشعر بفارق بينىَّ و بين سيدات و أميرات هذا المُجتمع .. أنت ذلك المشط العاجى ، الذى أمشط به خصلات شعرىَّ المُتحجرة ، فتلين و تصبح كما خيوط الحرير ، أنت ذلك الماضى الذى أنقضى علىَّ ، و أنت حاضرىَّ الذى أحياه ، و مُستقبلىَّ الذى انتظره .

شعر الحطاب بأن كلمات زوجه كأنها ذلك العسل الذى يخفى بين طبقاته اللزجة طعم الحنظل المر ، كانت كلماتٌ معسولة تعمل على تخدير مشاعره المجروحة ، فقال مُحتجًا :

- و لكن ...

- و لكن ماذا ؟ .. أنا منك و إليك أعود ، و أنت منىَّ و إلىَّ .

قرأت الزوجة جهل زوجها بما قالته ، و عجزه عن فهم مغزاها ، فقالت مفسرة :

- أنا خلقت من ضلعك العائم ، و نبعت من أدران ذكورتك ، و أنا من سيعود مرة ثانية فى عصب ظهرك .. أنا من سيجعلك ترى

نور الدنيا .. أنا من سيلدك و يمنحك الحياة .. بطاقة الدخول إلى هذا العالم .. أنا فتنتك .. أنا بطاقة خروجك من هذا العالم .

رفع الحطاب رأسه عن صدر زوجه فى هدوء ، و هو يتطلع فى عينيها بحب ، لعله يعب من روحها ما يمنحه جمالها ، و هو يقول مغازلاً :

- ما أعذب لسانك و أجمل كلماتك !

ابتسمت الزوجة فى دلال ، و هى تقرأ ذلك الحزن الدفين داخل هذه النفس المُعذبة ، فقالت مُحاولة إحتواء تعاسة زوجها و حزنه بين ضلوعها ، لعلها تنجح أن تغزل منهما خيوط السعادة .

- لسانىَّ يتعلم الكلمات من شفتيك ، عندما تحتضن شفتىَّ ، و عينيك عندما تخاطب عينىَّ ، و على كلاً صورنا التى ننشأ عليها هى من صنع الله ، الذى خلقنا فى أحسن تقويم ، و أبهى صورة .. و أنا إن كنت قد ارتضيت بصورتك هذه فى دنياىَّ ، ذلك لأنىَّ أعلم أنك ستبعث فى جمال يوسف - عليه السلام - و قد وهبت شطرى الحسن ، و على هيئةِ آدم - عليه السلام - لتوهب الشطر الثانى من الجمال ، فتصبح كالبدر المنير الذى يسطع بين جنات الله ، أما أنا فاختال بحسنك و بهاء طلعتك بين السموات السبع .

أحس الحطاب بأن كلمات زوجه فتت فى عضالهِ ، و أن السعادة

نجحت فى أن تنتصر على أحزانهِ و تطردها بعيدًا عن حياتهِ ، فقال مُحاولاً ختم هذا الحوار ، الذى أثلج صدره ، و أنعش قلبه ، و مس شغاف رجولته ، و صدق على حب زوجته له إخلاصها لمنيه .

- ألن نأكل اليوم يا زوجتىَّ الحبيبة ؟ .. ماذا أعددت لنا اليوم ؟

- حساء البصل .

- اللهم دمها نعمة علينا ، و أحفظها من الزوال ، و بارك لنا فيها ، و متعنا بها ، و أنزلها علينا نزلاً مُباركًا .

* * *

و فى صباح اليوم التالى ، خرج الحطاب حيث الغابات ، ليقطع من شجرها ما يتيسر له من خشبها ، لعله يحصل على بضعة دراهم من بيعها ، تساعد فى دفع عجلة حياتهما إلى الأمام و لو لخطوة واحدة ، تاركًا زوجه فى ذلك الكوخ الفقير بالمادة و مظاهر الحياة ، الغنى بالحب و العطاء .

تركها عارية ، كما وجدها فى أمسها ، بعدما حصل على الثوب ، الذى دثرها به ، ليقيها من برد المُناخ .

سعى الحطابُ خلف الكد و العمل ، للحصول على النذير من المال ، الذى يأمل أن يدخل كوخها السرور على زوجهِ ، على حين كانتَ هذه الآخيرة تسعى لجعل كوخها الصغير ، الخاوى على عروشهِ

قصر فخيم ، لعله يسعد زوجها ، و يمحو الحزن من جبينهِ .

و هناك .. حيث ركن قصى يبعد عن الكوخ بما يُعادل مائة قدم ، كان يتربص رجلان متخفيان خلف شجرة ، يبدو عليها أنها شجرة خبيثة ، لا تحمى من أشعة الشمس الحارقة ، و لا تلقى بظلال وارفة ، فقد كانت جافة ، فروعها خاوية من اللون الأخضر ، منظرها العام يمنحك رغبة فى التقيؤ .

كان الرجلان يتحينان خروج الحطاب من كوخهِ ، لتصبح زوجه وحيدة ، لا يزود عنها سوى أعواد من الخوص ، التى لا تكفى لأن تزود عن طفل صغير ، فما بالكم بامرأة .. امرأة عارية ، و المغير عليها رجلان .. تتنازع بداخلهما أمارات الشهوة و نزعة حب البقاء .

عندما خرج الحطاب من كوخهِ ، و أخذ دربه نحو الغابات ، التى أبتلعته بين ضلوعها ، خرج الرجلان من خلف الشجرة ، التى لفظتهما ليسيرا نحو الكوخ ، حتى تسمرا أمامه ، ليستنشقا عبق الأنوثة الطاغية الذى يفوح من كل عود رابض فى الهواء ، ليصنع ذلك الكوخ .

- من ؟ .. من الطارق ؟

- أنه أنا .. مولاك الزهير بن اللاما ، و تابعى سعيد بن فيروز

- مولاى الزهير بن .. بن اللاما ! .. إن زوجىّ ليس بالدار ..

أنه خرج منذ دقائق عدة ، قاصدًا الغابة ، و ...

- زوجك ! .. أعلم أنه ليس بالدار .

تطلع الزهير للكوخ فى إحتقار و إزدراءٍ ، وهو يقول :

- و أى دار تقصدين ؟ .. أنك تتحامين ببعض القش و الخوص ، و تكفى بتقة منىَّ لهدمه .

- ماذا ؟ .. ماذا تريد يا سيدىَّ ؟ .. إن الكوخ ليس به حطب ، لقد باعه زوجىَّ أمس .

قهقه الزهير ضاحكًا ، و هو يقول نافيًا ذلك السبب :

- أنا لم أحضر من أجل الحطب ، أو من أجل زوجك ، و لكنىَّ حضرت إلى هذا المكان النائى من أجلك أنتِ .. أريدُ أن أرى ذلك الجمال الذى يتحادث عنه الناس فى كل مكان .. أريد أن أعب من أنوثتك .. أريدُ أن أروى ظمأىَّ منك .

أتاه صوت المرأة الخافت ، الخائف ، المتضرع ، و هى تقول :

- أتقى الله فىَّ .. أنا امرأة مؤمنة ، عاهدت زوجىَّ على الإخلاص و الوفاء له ما حييت .

قال سعيد فى سخريةٍ :

- إن سيدىَّ الزهير لن ينالك مجانًا أيتها الفاتنة ، سيمنحك كل ما تشائين .. فقط أمنحيه كل ما يُريد .

استطرد الزهير في سرعةٍ مُصدقًا على كلام تابعه و هو يقول :

- نعم .. سأمنحك مائة فرس أبجر .. سأمنحك دار فخمة فى المدينة .. سأجعلك من أسياد القوم .

ثم صمت زهير و من قبلهِ تابعه ، مُنتظرين رد المرأة المُشتهاة ، و قد طال انتظارهما ، و السكون غلف المكان برهبتهِ ، و بعد فترة من الزمن طالت أم قصرت ، أتاهما صوت المرأة مرهق ، مشروخ ، يبدو فى نبراتهِ الإرهاق و الألم ، و على النقيض يفوح منه القوة و الصمود ، و هى تقول

- ثكلتك أمك يا ابن أوى .. لعنة الله عليك و على تابع السوء ، الذى يتبعك كذنب الكلب .. لقد عاهدت ربىَّ أن أحفظ فرجىَّ ، و لا يدخل علىَّ سوى زوجىَّ .. أهذا ما تعلمتماه فى المدينة على أيدى صحابة رسول الله .

كانت كلمات الزوجة كالسياط ، الذى أخذ ينهال على الرجلين بلا رحمة ، على حين صاح سعيد ، و قد أكتسى وجهه بأمارات الغضب ، و قد حل السواد عليه و هو يقول :

- أنها تتبع الدين الجديد .. أنها تتبع دين محمد .

- أنها كافرة بآلهتنا .. و اللاة و العزة لأنال منك ما أريد و أشتهى كل ما فيك دون مقابل أيتها الصابئة ، و لن يعصمنى عنك

عاصم ، و لا محمد نبيك المزعوم .

أخذ الرجلان ينهالان على الكوخ الصغير بسيفهما ، لتسقط أعواد الخوص صريعة تحت أقدامهما .

و داخل الكوخ كانت الزوجة ساجدة ، رافعة يدها إلى السماء ، و قد سالت الدموع من عينيها ، و هى تردد فى خشى و صوت بُلى من الرعب و الخوف ، و قد استمد نبراته المتعالية من طهارة الجسد العارى .

- اللهم أنىَّ أدعوك بقلب خاشع ، و جسد عارى من ملذات الدنيا .. اللهم أننا نحمدك على السراء و الضراء .. اللهم أنىَّ عاهدتك على حفظ فرجىَّ ، و عفت نفسىَّ ، فلا تجعلنىَّ لقمة سائغة فى يدى أعدائك و أعداء دينك و رسولك .. اللهم أكفينىَّ منهما الشر و الضر ، و ...

أبتعلت الزوجة عبارتها ، لتجد نفسها عارية ، وسط بيئة عارية ، بعدما تهدم الكوخ و أصبح أطلال تعلوها أقدام المعتدين ، و قد برزت نواجذهما ، و اللعاب يتشدق منهما ، و الشرر يشتعل بعينيهما ، و هما يتطلعا لذلك الجسد العارى ، البض ، الملقى على الأرض متهيأ فى استسلام ، و قد هيئ لهما ، أنها ساجدة على الأرض متهيأة و منصاغة لشهوة أسيادها ، اللذان رغبا فى جعلها وعاء يحتوى شهواتهما فى صمت ، دون أدنى صرخة أحتجاج .

و بدأت الأرض تميد بالزوجة ، و جفنيها يتثاقلان ، و نور الدنيا يتسلل رويدًا رويدًا من مقلتيها ، ليسقطها فى ظلمةِ بئر لا قرار لها ، و آخر ما شاهدته إبتسامة حيوانية ترتسم على وجهى الرجلين ، و هناك من بعيد هيأ لها أنها ترى فارسًا أبيض الثياب ، منير الطلعة ، يتمنطق فرسة بيضاء اللون ، يعدو بها نحوها بسرعةٍ ، ليحتضنها بين ضلوعه ، و ...

غابت عن الوعى ، ليهم بها الأعداء ، و ينقضا عهدها مع الله - عز و جل - و يدنسا شرفها ، و ...

* * *

و بعد مرور الزمن ، ربما كان يومًا ، أو ساعة ، أو دقيقة ، أو حتى كان شهرًا ، كان يرقد جسد الزوجة مُسجيًا على مضجع وثير بعض الشئ ، يرقد داخل دار جيدة و ليس كوخ من الخوص ، و بدأت جفونها تتنبه بأن صاحبتها تستعيد وعيها تدريجيًا ، و قد بدت لها صورة زوجها فى بدايةِ الأمر مُشوهة ، مهزوزة ، و قد لاحت إبتسامة ساحرة على وجهه ، الذى بدا لها أنه ساطع كالبدر ، أبيض كالثلج ، و قد زالت سمرته ، و قد أخترق أذنيها صوت جميل ، عذب ، يُردد :

- حمدًا لله على سلامتكِ يا حبيبتىَّ .

حولت الزوجة نظرها عن زوجها ، لتلمح ذلك الفارس الذى يرتدى ثوبًا شاهق البياض ، كما شاهدته قبل أن ...

- أين أنا ؟ .. و من أتى بك إلى هنا يا زوجىَّ العزيز ؟ .. هل وافتك المنية حزنـًا علىَّ ؟ .. و من هذا الرجل الذى يقف بجوارك ؟ .. لقد شاهدته فى أحلامىَّ قبل ذلك .. هل هو ملاكىَّ الحارس ؟

ألجمت سعادة الزوج بعودة زوجه إلى وعيها لسانه ، على حين قال الفارس ، و قد لاحت إبتسامة بشوش على وجههِ و هو يقول :

- أنت هنا فى دارك .

- دارىَّ ؟!!

- نعم .. دارك الجديدة ، التى وهبك إياها رسول الله ، عوضًا عن الكوخ الذى تهدم .

- رسول الله ! .. و من .. من أنت يا سيدىَّ ؟ .. هل أنت خازن الجنة ؟

- لا يا سيدتىَّ .. أنت مازلت على قيد الحياة ، و لم يحدث لك سوء .

- و الكفرة ، أبناء الكفرة ؟

- لقد أرسلنىَّ الله فى الوقت المُناسب لأكف عنك آذاهما .

- من أنت ؟

- أنا تابع من عند رسول الله .

-رسول الله !

-نعم .

-ليَّ أنا ؟

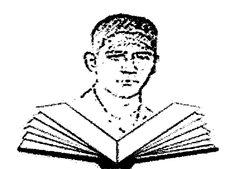
-نعم .

-لماذا ؟

-ليُبشرك بالجنة ، لأنك حافظت على فرجك لزوجك ، و صنتيَّ عهدك مع الله - عز وجل - ، و الله خير مكافئ لعباده ، و بعثت الأمل فى قلب زوجك ، و أمنت به ، و تحاملتيَّ على نفسك تحرش الأعداء بك ، و قبلتيَّ النذير من قوت يوم زوجك ، فوهبك الزوج جنتك .

العمــل الثالث

توراة الفيطوان



ع

ُكتب على العرب الرحيل من اليمن إلى يثرب موتورين ، مُهاجرين كالطيور ، باحثين عن المثوى و السُكنى و الاستقرار ، و الخشية تتربع فى قلوبهم من لفظ أرض اليهود لهم ، فيضيعوا فى الفيافى ، و تندثر سيرتهم دون رجعة ، فقد كانت يثرب ملك يمين اليهود من الصدوقيين و الفريسيين ، فكان لهم بها تسعة و خمسون أطمًا ، يُغذونها بالأسلحة و العتاد و المؤن ، ليحموا أنفسهم و أولادهم خلفها ، و يدرءوا أى عدوان خارجى على يثرب ، يُهدد كينونتهم من داخل جدرانها .

و لكن العرب اتخذوا من أطراف يثرب سكنى لهم ، ليدقوا الخيام ، و يطلقوا سراح الأبل و الأغنام لترعى مع أيائل الصحراء ، و يشعلوا النيران ، لتتصاعد أدخنتها السوداء إلى عنان السماء ، كأنها الغربان الفزعة ، لتعلن أن العرب أصبحوا جزءًا لا يتجزء من يثرب ، كونهم كون اليهود .

ليُكون عرب اليمن المُهاجرين قبيلتين ، هما الأوس و الخزرج ، ليكونا كيان واحد داخل أسوار يثرب ، كبنو النضير و قريظة و نجران و سائر قبائل اليهود .

و تمضى السنون بطيئة ، خاملة ، و العرب ساكنون ، لا يحتكوا بيهود يثرب ، لا فى تجارة و لا بيع ، فقد كان كلاً من الطرفين -

العرب و اليهود - يآثر العزلة عن الآخر .

فالعرب كانوا يستشعرون أنهم أقلية ، هبطت على أرض يثرب ، مُتخذين من ذيلها الجنوبى وطنًا لهم ، و أن أى أحتكاك باليهود كان كفيل بأشعال حرب معهم ، كفيلة بإبادتهم عن بكرة أبيهم ، و إن بقى منهم من استطاع أن يتغلب على المـوت المتمثل فى ذبابة سيف اليهود فلن يستطيع أن يفر من موت مُحقق و هو يُعانى الجوع و العطش و هو شريد ، تائه ، وسط لجة الفيافى ، التى لا أول لها و لا آخر .

أما اليهود كديدنهم ، يحسبون فى عزتهم و غلبتهم أنهم ملوك الأرض ، و ما العرب إلا شرذمة موتورة ، جاءت إليهم تبغى التوارى فى كنفهم ، و التخفى فى قوتهم ، فما كان للسيد أن ينحدر إلى قاع عبده ، و السيد هنا اليهود فى أعتقادهم ، لأنهم شعب الله المختار ، الذى فضله بعشرات من الرسل و الأنبياء ، الذين هبطوا عليهم بشرائع و صحف من عنده ، أما العبد الأبق ، فهم شرذمة العرب ، التى حلت عليهم .

و لكن السنون التى اقتطعت من جعبة الزمن ، لم تجعل من العبد عبدًا ، و لا من السيد سيدًا .

فقد أصبح العرب قوة لا يُستهان بها ، و عدد غفير لا حصر له ،

استطاع أن يتوغل فى يثرب ، سافلها و عاليها ، فقد كانت حركات الهجرة من اليمن إلى يثرب هى المغذى الرئيسى لقوة العرب ، التى أصبح لها شأن لا يُستهان به .

أما اليهود ، خاصة بنو النضير و قريظة ، فقد كانتا أوفر قبائل اليهود عددًا ، و بها من الرجال أشدهم ، و من العتد و العتاد أوفره ، فقد زلزل عرشهم ، و توجست نفوسهم خيفة أن يجليهم العرب من أرضهم كالطوفان ، و لا يبقوا على آثارهم ، حينها لن تنفعهم آطامهم و لا حصونهم .

و ما كان لليهود إلا أن يجتمعوا على قلب رجل واحد ، يوحد كلمتهم ، و يهدم النزاع الناشب بينهم ، خاصة بين اليهود الصدوقيين و اليهود الفريسيين .

و سرعان ما نُصبت الخيام العملاقة فى الخلاء ، لتضم بين أحشائها زعماء و أشراف قبائل اليهود ، فى إجتماع يبحث فى أمور اليهود مع عرب الأوس و الخزرج ، و ضرمت النيران فى الأعواد الجافة ، لتطهى عليها شتى صنوف الطعام ، لتملأ بها البطون ، فتعمل العقول على إيجاد الحل السديد .

و حانت لحظة التجمع فى ليلة حالكة تضاهى حلكة المداد الأسود ، و قد كانت صفحة السماء تخلو من ضوء القمر أو شعاع النجوم ، كأنه

لملم طرف ثوبه و رحل عن مجلسهم .

و قد نهض كبير اليهود الصدوقيين ، ليخطب فى الحضور :

ـ اليوم يا يهود يثرب الأمر جد خطير ، فكياننا على وشك الأنهيار و الأضمحلال ، كأنه الدهن الذى يتساقط من جسد الشاة المضرومة على نار هادئة .. إن لم نتحد اليوم على قلب رجل واحد صدوقيين و فريسيين و نضير و قريظ و شتى قبائل اليهود ، سوف تبلعنا هذه الأرض التى ولدنا عليها بين ثراها ، لتكون ملهى و مرحب للعرب .. هؤلاء العرب الذين حطوا علينا منذ سنوات ليست بطويلة ، راغبين فى الحياة فى كنفنا ، مُهاجرين من بلاد اليمن إلى بلادنا ، و لكنهم اليوم أصبحوا قوة لا يُستهان بها .. قوة تهدد وجودنا ...

صمت كبير اليهود الصدوقيين ليبتلع لعابه الذى ندر فى حلقه من مرارة ما يرويه ، و صعوبة ما يجيش فى صدره ، فانتهز أحد الحضور هذا الصمت ، ليلقى بسؤالهِ قائلاً :

ـ و ما الحل يا كبيرنا ؟ .. العرب كالجراد يزحفون على بلادنا ، و لن يهدءوا حتى يُبيدونا .

قال آخر ، و قد أخذته الحمية :

ـ لقد أصبح للعرب شأن عظيم ، و تجارتهم الرائجة ، و قبائلهم التى تجوب الأرض مشرقها و مغربها ، على حين بركت تجارتنا و

كسدت ، و أخذت أموالنا تتسرب من بين أناملنا ، لتصب فى خزائن العرب .

قال آخر :

- أفتى فينا يا كبيرنا ، لنتغلب على هذه المصيبة التى حلت علينا

كان الكبير يُداعب خصلات لحيته البيضاء ، المديدة ، و هو غارق فى التفكير و التدبير ، حتى قال بعد طول صمت :

- الخطوة الأولى فى حربنا مع العرب هى أن نفض أى نزاع بين صفوفنا ، لنوحد خطانا ، و نقلم الكراهية من نفوسنا .. و لهذا أدعوا زعماء و أمراء و أشراف الصدوقيين و الفريسيين لفض النزاع بينهم ، و خمد الفتن بين أرجاء قبائلهم ، و تحصين ذويهم بالسلم ، لمُواجهة خطر الأوس و الخزرج مُجتمعين كالبنيان المرصوص .. ما رأيك يا سيد الصدوقيين ؟

تحولت أنظار الحضور إلى كبير الصدوقيين الذى توسط حاشيته و ذويه ، و قد أخذ هذا الآخير يُحملق بعمق لنده و غريمهِ - كبير الفريسيين - الذى يجلس قبالته بين عشيرتهِ ، قبل أن يهز رأسه ، قائلاً :

- الرأى ما يراه كبيرنا و حبر أمتنا .

تهللت أسارير كبيرهم ، قبل أن يوجه بصره و سؤاله إلى كبير

الفريسيين ، قائلاً :

-و ماذا عنك يا سيد الفريسيين ؟

-لن أكون أضنى كرمًا من سيد الصدوقيين ، و ها هى يدىً ممدودة له بالسلم ، و مجنوحة له بالإخاء و الأخوة .

تهللت أسارير الحضور ، التى تحولت لمباهج ، كأنها ليلة عُرس ، فأخذ الرجال يتصافحون ، و يتصايحون ، و يتبادلون القبلات العميقة ، و هم يشاهدون كلاً من سيد الصدوقيين و سيد الفريسيين ، و هما يتصافحا و يتبادلا القبلات فى حبور ، و كان هذا بمثابةِ إبرام عقد بين طوائف اليهود فى يثرب ، فحواه الإتحاد على العرب لأذلال ناصيتهم و هدأت السعادة بعض الشئ فى ظاهرها ، و لكنها تأججت فى نفوس الحاضرين ، و هم يصغون بأهتمام لكلمات كبيرهم ، الذى قال و قد أنفرجت أساريره عن إبتسامةٍ هادئةٍ :

-بهذا الإعلان نكون قد تخطينا مسافة لا بأس بها فى جهادنا ضد الأوس و الخزرج ، و بقى لنا شئٌ واحد لا تنازل عنه يا حماة التوراة .. أول كتاب عرفته الأرض .

قال أحد الأمراء الفريسيين :

-و ماهو هذا الشئ ؟

و قال آخر من بنى قريظ مُتسائلاً :

- أنتوحد لقتالهم ؟

و استطرد آخر مُكملاً ما بدأه من تحدث قبله ، مُثنى على عشيرتهِ :

- إن رجالنا أشاوس مغاوير ، يكفى أن نطلقهم فى يثرب ليجوبوها .. سافلها و عاليها ، شرقها و غربها ، حتى يمحوا كل آثر للعرب فى هذه البلاد .

على حين قال آخر :

- و رب التوراة إن رجالنا ...

قاطعه كبيرهم ، و هو يلوح بيديه طالبًا الصمت ، و قد أنزعجت آيات وجهه ، و هو يقول :

- الحرب لن تجدى مع العرب .. على الأقل الأن ، ربما كانت هذه الوسيلة قادرة على أن تفت فى عضدهم منذ عشرات السنوات التى بُليت و انقضت ، أما الأن فهم عُصبة لا نقدر عليها ، فقد تفحل عددهم ، حتى أنهم قادرون أن يحجبوا نور الشمس ، فهم رعاة .. حيوانات ، لم يقطفوا من الدنيا سوى شهوة الإنجاب ، لذلك نراهم فى تزايد مُستمر ، لذلك لن يفلح العنف معهم .

- و ما الذى يفلح معهم يا كبيرنا ؟ .. أن نتركهم على حالهم هكذا ، حتى يفنونا عن بكرة أبينا ؟

- من قال هذا يا ولدىّ ؟ .. أنا أرى أننا قريبون من الحل .

صاح الجميع فى صوت واحد :

-و ما هو ؟

- الصلح يا أبناء التوراة .

الجميع فى دهشة و استنكار :

- الصلح !

- الصلح مع من يا كبيرنا ؟

-مع الأوس و الخزرج يا أبنائىّ .. مع العرب .

سادت الفوضى ، و عم الاضطراب بين الحضور ، و كل منهم يقذفه بأبشع النعوت ، و يرمونه بالجنون ، على حين نجح كبيرهم فى الحفاظ على هدوءه ، و هو يُواصل عباراته ، قائلاً :

- يا أبناء التوراة .. انصتوا لكلماتىّ ، و أمعنوا فيها ، و تفحصوا فى معانيها ، فهى بمثابةِ مفتاح نصركم على العرب إلى أبد الأبدين .

كان لوقع هذه الكلمات تأثير خاص على مسامع الحضور ، الذى لاذ بالصمت ، و قد عُقدت ألسنتهم فى حلوقهم ، و هم يُحدقون فى كبيرهم بعيون مُتحجرة ، و ينصتون لكلماتهِ بآذان مُتعطشة لمعرفة هذه الكلمات ، التى تطوى بين حروفها نصر اليهود على العرب إلى أبد الآبدين ، و قد استشف كبيرهم وقع كلماته فى نفوسهم ، فعب من

نسيم الليل ، ما ملأ صدره ، كأنه يستعد لأقحام نفسه فى معركة حامية الوطيس ، ستظل رايتها مشهورة آلاف الأعوام ، قبل أن يقول بصوت عميق ، هادئ :

ـ يا أبناء التوراة ، الصلح هو مفتاح نصركم على العرب إلى أبد الآبدين ، دعوهم يعتقدون أنهم السادة و نحن العبيد .. دعوهم يظنون أنهم الراعى و نحن الغنم ، المسيرة تحت لوائهم ، و هذا ليس ضعفًا منا ، بل دهاء و مكر .. فتحلوا بمكر و دهاء الثعالب ، ادخلوا فى كنف العرب حتى يأمنوا لكم ، و استنزفوا مواردهم ، انشبوا مخالبكم فى نفوسهم ، ازرعوا الضغينة بينهم ، فكل بلاء للعرب هو نصرٌ يُحسب لنا ، و لكى ننتصر على عرب الأوس و الخزرج ، لابد أن نسعى للصلح معهم ، و أن ندخل فى زوارقهم ، فننتفع بتجارتهم ، و عند أول كبوة نلقيهم فيها ، و نتحامى نحن خلف أطامنا .. أفهمتم مقصديَّ يا أبناء التوراة ، لابد أن تسموا نفوسكم فوق نفوس البشر ، حتى لو طأطأنا الرؤوس بعض الحين ، حتى لا تذرى بنا العاصفة ..

صمت كبيرهم ليشارك الحضور صمتهم ، و هو يرى الأقتناع بما قاله راسخ فى عيونهم ، و كان بعد نظر حبرهم و دهائه كافيًا لعقد ألسنتهم ، و أختفائها داخل حلوقهم ، لعلها تنجح فى التكفير عمّا تفوهت به فى حق كبيرهم ، الذى أخذ بعزم الأمور ، و قال أمرًا فيهم

ـ لابد أن تختاروا من بينكم من يمثلكم فى شتى أموركم ، فيكون حكيم اللسان ، شديد الدهاء ، قوى الشكيمة ، لا تهتز له شعرة فى عزم الأمور ، يكون صاحب قلبًا قد باعه للشيطان ، فلا يرق لجريح أو مريض ، و لا ينفطر لبكاء طفل ، و لا يهفو لجسد امرأة ...

قال كبير بنو النضير :

ـ و أنت خير من يمثلنا .. فأنت حبرنا ، و أكثرنا ذكاءًا و دهاءًا ، و لك من العزيمةِ ما تحطم الجبال ، و لم نراك يومًا تحنو على طفل ، أو تؤازر رجلا حتى و لو كان الحق بجانبهِ ، و لم يُشاهدك أحدنا تدثر امرأة عارية قد نهش شرفها ذئاب من البشر .

صاح الجمع مؤيدًا و مصدقًا على قول سيد بنى النضير :

ـ أى و رب التوراة ، هذا ما نشهد عليه .

قال حبرهم :

ـ و يُحزننىّ أن أتنحى عن هذا المنصب ، فها أنا أشرف على عامى التسعين ، و قد ذابت قوتىّ و صحتىّ فى وعاء الزمن ، و لم يبق منها إلا النذير ، الذى يمنحنىّ القدرة على الصمود أمامكم ، و التفكير لصالحكم ، لذلك أدعوكم لاختيار رجل من بينكم ، يُباشر مصالحكم ، و دورىّ هو المراقبة و التطلع ، و لكم أن تعلموا يا أبنائىّ أننىّ لن أتنح عن إسداء النصح و الإرشاد لأى فرد منكم ، سواء أكان

أميرًا أو شحاذا طالما جهادكم كان فى سبيل دحر العرب .

صدرت من أفواه الحضور آهات حزن ، لتنحى حبرهم على أن يكون هو المفوض لمباشرة صالحهم ، و قد حارت العقول فيمن يصلح ليكون كبير قبائل اليهود ، و أخذ كل واحد من الحضـور يتوسم فى نفسـهِ أن يكون سيد يهود يثرب ، و قد قال أحدهم موجهًا كلماته لحبرهم :

-نحن عجزى عن اختيار أحدنا ، فهذا الأمر كفيل بأشعال نار الفتنة بيننا ، فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، و أعفنا من هذا الصراع الذى قد يحتدم بيننا ، و قم باختيار أحدنا ، من تراه صالحًا لهذا المنصب ؟

-فى حقيقة الأمر يا أبنائىَّ ، قبل أن أصارحكم بهذا الأمر ، سعيت فى البحث عن من يصلح لهذا المنصب القيادى الحساس ، و قد وفقنىَّ رب التوراة بهداية موسى و هارون ، أن أجد من يصلح ليكون قائد يهود يثرب ...

صمت كبيرهم عن الكلام ، ليرى فى عيونهم تأثير كلماته ، و يقرأ ذلك الأضطراب الذى أصاب نفوسهم ، التى تساءلت فى قرارها مَن يكون هذا السعيد الذى اختاره كبيرهم ؟ .. هل يكون هذا أم ذاك ؟ .. و أراد كبيرهم أن يُخفف من وطأة توترهم ، فقال فى حزم :

-لقد أخترت من بينكم .. الفيطوان .

- الفيطوان ؟!

-و نعم الأختيار .

-و نعم الرجل .

-حقًا أنه فارس ابن فارس ، و قادر على دحر العرب ، و غرس أنوفهم المتعالية فى الوحل .

- يا أبناء التوراة .. أنا لم اختر الفيطوان من دونكم لأنه فارس لا يشق له غبار ، و لا أنه ابن من أبناء بنى نجران أو بنى قريظة أو بنى النضير ، و لا لأنه من الصدوقيين أو من الفريسيين ، لأنكم بجميع طوائفكم سواء فى التوراة التى ترفرف أسفارها على رؤوسكم ، و لكنىّ اخترته لأنه قادر على تنفيذ ما نصت عليه توراتنا المُباركة ، و العمل بتعاليمها فى العرب ، فبذالك يكتب لكم النجاة .

و انتهت ليلة اليهود على مُبايعة الفيطوان ليكون كبيرًا لهم ، و المفوض فى أمورهم ، على أن يتخذ من التوراة منهجًا ينتهج به .

- ٢ -

عندما وجد عرب الأوس و الخزرج اليهود قد توحدت كلمتهم تحت لواء رجلا واحدًا هو الفيطوان ، أرادوا أن يُوحدوا كلمتهم تحت راية رجلا قادرًا على الدفاع عن متطلباتهم ، و حمايتهم من مكر و دهاء اليهود ، و يدافع عن تجارتهم الآخذة فى الأزدهار ، و قد وقع اختيارهم على مالك بن العجلان أخو بنى سالم بن عوف بن الخزرج ، فاتفق الحيان من الأوس و الخزرج على أن تنول كلمتهم إلى مالك ، فصار مالك ابن العجلان زعيم القوم و سيدهم .

و تم عقد إتفاقية بين يهود يثرب و الأوس و الخزرج ، على أن يتبادلا التجارة و المصالح العامة ، و لا تغير أحد الطائفتين على الآخرى ، و مع أنتعاش تجارة اليهود ، التى كانت على وشك الأنهيار ، فى ظل نجاح تجارة العرب ، أنتعشت معها مكانة الفيطوان ، خاصة بعدما أصبح اليهود يدينون له بحياتهم و حياة أبنائهم ، فهو من أبرم إتفاقية الصلح مع العرب ، لتنتعش تجارتهم ، و ترى دورهم أشهى الأطعمة ، و أبهى الثياب ، فظن أنه سيد الكون ، و لا مرد لأوامره .

و أثناء مجلسه مع ندمائه ، و بين رشفة كأس و آخرى ، و الخمر تلعب برأسهِ كما يلعب الطفل الصغير بدميتهِ ، كان يسب العرب ، مدعيًا أنهم وافدون على ديارهم ، و ما نجاح ما هم فيه من ثراء و

أزدهار إلا نجاح مستمد من نجاح اليهود ، أسياد الأرض ، و شعب الله المختار ، و يزداد تأثير الخمر على نفسه ، فتذهب بما بقى من رشده ، لتجعل لسانه يعيب فى نساء العرب ، و يتغزل فيهن ، بل و يشتهى بعضهن .

على حين كان الحضور يخشون أن تتسرب هذه الكلمات من مجلسهم ، و تصل لعرب الأوس و الخزرج ، فتحدث الوقيعة بينهم و تضرم الحرب ، التى ستكون وبال على يهود يثرب ، و ربما يصل الأمر لجليهم عن يثرب كلها ، فالعرب عزوة و قوة ، بينما هم أقلية تحيا فى ظلهم ، و تعيش على فتات تجارتهم ، التى يمنون عليهم بها . فكانوا يُجاهدون فى صرف نظر الفيطوان عن الخوض فى سيرة العرب ، و نساء العرب ، خاصة و قد شاع فى العرب أن الحديث عن نسائهم لا يمحوه إلا الدم ، و هم فى غنى عن كل ذلك .

و لكن الفيطوان كان يصر و يلحف على إنه أعظم من خلق على هذه الأرض ، و لابد أن يركع العرب أسفل قدميه كما فعل اليهود من بنى قومهِ ، و ذات ليلة أفرط فى تناول الخمر المعتقة ، و قد ذهبت بما لديه من عقل و دراية ، فظن نفسه ملكًا يعلو جبينه تاج المملكة ، و من حولهِ حاشيته المُباركة ، فصاح فيهم بلسان مُتعثر :

- من اليوم لن يدخل رجلٌ على زوجهِ فى ليلتهما الأولى ،

قبل أن أدخل أنا عليها أولاً ، لأمنحها من بركتىّ ، و لن يفض رجل بكارة أنثى قبل أن أسبقه أنا لذلك ، فأنا رسول رب التوراة و أنتم عشيرتىّ و من بعثت فيهم ، فكما أقضى لكم مصالحكم ، تسارعوا لأمتاعىّ .

و أزبد الحاضرون متذمرين ، ظانين أن الخمر أذهبت بعقل صاحبهم ، و قد سعى فى التطاول على نسائهم ، و يضع الرجال منهم فى وضع لا يحسدون عليه ، فكيف يدخل على نسائهم رجلٌ غريب عن أزواجهن ، و يفض بكارتهن ، و يعب فى أرحامهن من أدران صلبه ، بالطبع فالمتحدث سفيه لا يعقل ما يقول ، فصهين الجميع عما قال ، و قد أعتبروا ما قاله فحوى سكير لا يعى ما يقول .

و قد ظن الجميع أن هذا الأمر يمسهم وحدهم ، فهم يهود لا دخيل بينهم ، فلهم أن ينظروا فى أمر صاحبهم ، الذى عاد ليزبد فى أعراض العرب .

- و قبل أن أدخل على نسائكم بنى يهود ، فنساء العرب هن حل لىّ ، و ليعلم كل من يقطن يثرب أن ما قلته هو أمرٌ نافذ على يهود و عرب يثرب .. الكل سواء .

و سرعان ما أنفض المجلس من حول الفيطوان ، خشية أن يتمادى فى عبثه ، فيجر عليهم الوبال ، و ما لا يستطيعون صده ، و ذهب

قوم منهم إلى حبرهم ، ليشكوا له حال الفيطوان ، و ما يجنيه لسانه من جراء الإفراط فى الشراب ، و لكن الحبر علل ما يحدث للفيطوان إلى حقده الدفين للعرب منذ أن قتلوا والده فى أحدى المعارك ، و رغبته فى القصاص منهم ، و قد ساعدته الخمر فى تحقيق أنتقامه ، و لكن فيما لم يتعد جماح خياله ، و وعدهم أن يُحدثه فى أمر الإفراط فى الخمر ، و يحذره من خطورة ما يتفوه به .

و أهمل اليهود هذا الموضوع ، معتمدين على أن حبرهم سيمضى فى حله و فضه بخطى سريعة ، حتى كانت ليلة عرس أحد أبناء بنو النضير ، و أوشكت الليلة على الأنتهاء ، لينفض المجلس ، و يرحل الأحباب و الأقارب ، ليخلو الزوجين إلى بعضهما البعض ، و لكن فوجئ الحضور بموكب عظيم يقتحم سامرهم .

كان الفيطوان يتوسط عشرات الجنود ، و هو متمنطق فرسه الحالك كما الليل .

فى بداية الأمر ظن الحضور أن الفيطوان جاء لسامرهم ليُهنئ و يُبارك حفل الزفاف ، و لكن هالهم البطانة التى أتى بها من جنود مدججين بالسلاح .

- أين العروس ؟

- أهلاً بك يا فيطوان .. هل حللت علينا مباركًا أم ...

- أين العروس ؟

- لماذا يا فيطوان ؟

- ألم يتم عقد قرانها على ابنكم ؟

- بلى .

- إذا فهذه الليلة هى حلٌ لىَّ ، و بعد ذلك تكون ملك يمين زوجها ، يهنئ بها و تهنئ به .

- ما هذا الهراء يا فيطوان ؟

- هراء ؟! .. حذار أن تتجرأ علىَّ يا سيد بنو النضير ، و لا تتناسى إلى من تتحدث .. أنا الفيطوان .. من يطعمك و يطعم حزبك و بنو قومك .. إن ناصيتك بيدىَّ أنت و بنو قومك ، بل اليهود كلهم ، فبيمينىَّ أغدق عليكم المال ، و بيسارىَّ أحجبه عنكم .. حذار أن تتطاول على الفيطوان .

- و لكن ما تقوله هو عين الخبل و درب من الجنون ، و كيف نسمح لك أن تنال عروس ابننا قبل أن ينالها زوجها ؟ .. نحن لا نسمح لك أن تمسس شعرة واحدة منها .

- من الذى يتحدث إلىَّ ؟ .. من تكون أنت يا سيد بنو النضير ؟

- بل من تكون أنت يا فيطوان ؟

- أنا سيد هذه الأرض .. سيد يهود و عرب يثرب .. رسول رب

التوراة المنزل عليكم .. أسعى لصالحكم مع العرب ، و ذلك لابد أن تسعوا لأمتاعىَّ و تلبية رغباتىَّ .

-و هل التوراة تنص على أن تنهك أعراض بنى جنسك ، و تشرد نسائها ، وتجعل رجالها نساء تحيا بين نساء ؟

-إن توراتىَّ .. توراة الفيطوان تنص على أن الشعب مُسخر لتلبية رغبات و أوامر سيدهم .

-و من جعلك سيد علينا ؟ .. نحن من جعلناك سيد ، و بأيدينا أن نسلبك السلطة ، و نلقيك خارج ديارنا .

-يا لك من صفيق .. خذوه .

و أتبع عبارته بأن سار بخطى قوية ، شرسة نحو مخيم النساء ، المرتجفات ، المرعوبات ، و قد أنفضضن من حول العروس ، التى بدت كالعصفور الصغير ، المبتل ، الذى يقف بين أصابع الريح ، و البرد ينهل من جسدها ، و هى تحاول أن تدثر جسدها بجسدها ، و هم الفيطوان أن يدخل المخيم ، ليظفر بفريستهِ لولا أن استوقفه ، من كان عريسًا منذ لحظات ، و هو يُشهر سيفه داعيًا الفيطوان للقتال .

و استجاب الفيطوان لهذا التحدى ، و تقارع السيفان فى قوة ، ليبرق منهما الشرر ، و مع بداية صليل السيفان ، هجم الأهل على جنود الفيطوان .

و تحول السامر إلى مأتم ، تشيع فيه جثث القتلى من الطرفين ، و أنفض القتال ، و قد قتل العريس بسيف الفيطوان ، الذى أغرورق بدماء الرجال و النساء ، و حتى الأطفال لم ينجوا من أعتدائه هو و جنده ، الذين كبلوا الرجال و النساء ، ليمضى كبيرهم فى أمره ، الذى أتى من أجله ، و قاتل و قتل من أجله .

و مع بزوغ أشعة الفجر الأولى ، نهض الفيطوان من على جسد العروس ، التى بدت كأنها جثة هامدة ، خبى نور الحياة من عينيها ، ليمضى هو و جنوده إلى حيث أتوا ، تاركًا الأهل فى حال يُرثى له ، و العبرات تنهال على جثث الضحايا تغسلها فى حزن .

و أجتمع رؤساء القبائل اليهودية فى حضرة كبير أحبارهم ، يبغون خلع الفيطوان من منصبهِ الذى تولاه بأيديهم ، و القصاص منه ، على ما فعله ببنى النضير ، و كان هذا ما يقره العقل ، و لكن كبيرهم كان له رأى آخر .

- يا أبناء التوراة .. أنا أخشى عليكم من الفقر المدقع ، و التشرد فى الفيافى و الوديان الجافة ، حيث لن نجد طعامًا و ماءًا ، حيث الموت ينتظرنا إذا ودعنا يثرب .. إذا خلعنا الفيطوان من منصبه ما يدرينا أن العرب سيتعاونون معنا مرة أخرى ، و لن يخلعونا من أرضنا ، و يلقون بنا فى الصحراء حيث القيظ و الجوارح ، بعدما كنا

أسيادًا ، سيصير بنا الأمر لنكون عبيدًا .. تريثوا يا أبنائىَّ ، إن الفيطوان الآن أصبح له مكانة خاصة فى تعاملاتهِ مع العرب ، خاصة مع مالك بن العجلان ، و بنى سالم بن عوف بن الخزرج ، و أخشى أن يغضب مالك بن العجلان عندما يعلم أننا أقتصصنا من صديقهِ الفيطوان .

-و لكنهما ليسا بندماء و لا بأصدقاء .

-و ما أدرانا يا بنىَّ .

-و ماذا ترى يا كبيرنا فيما حل علينا من بلاء و كرب ؟

- علينا بالأنصياغ لشهوات الفيطوان .

- أنترك نساءنا ليرتع بهم ؟

- أنا لم أقل مثل هذا يا بنىَّ ، بل أنا أقصد أن نساير الفيطوان ، حتى يهلك بغروره و تعاليه على بنى قومه من اليهود ، لتكون نهايته على يد العرب أنفسهم ، لتتقلب الموازين .

-و كيف هذا يا كبيرنا ؟

-لقد أنتشر بين يثرب كلها أن حفل زواج شقيقة مالك بن العجلان كبير الأوس و الخزرج ، و أعز شبابها ، سيقام فى نهاية الشهر العربىّ الحالى .

-و ماذا فى هذا ؟

- كيف يا بنىّ ؟ .. إن الفيطوان سيسوقه غروره لطلب أخت مالك لتكون حظية له قبل أن يدخل بها زوجها أمير الأوس ، و العبث مع نساء العرب عادة ما ينتهى ببحور من الدم ترتوى منها الأرض ، فكما نعلم أن عادات العرب و تقاليدهم وعرة و عصيبة الدروب ، و بالتالى سنتخلص من الفيطوان بيد العرب ، ليكون بهذا لنا دية عظيمة لرجلنا الفيطوان نملك بها جزء من تجارتهم .

صاح الجميع فى حبور ، و قد برزت أسنانهم الصفراء النخرة ، و هم يُرددون :

- و نعم الرأى .. و نعم الرأى .

- إذا عليكم يا أبنائىّ أن تؤجلوا أفراحكم حتى نأمن مثل ما حدث ليلة أمس .

و مرت الأيام و الأسابيع ، ليتوقف الزمن على باب نهاية الشهر العربىّ ، حيث أقيمت الأفراح و علقت الزينة فى طرق و دروب يثرب ، إحتفاءًا بليلة زفاف شقيقة مالك بن العجلان على أمير الأوس ، و ضربت الخيام فى كل مكان ، ليتجالس الرجال فيها ، و ضربت المواقد لتشوى على نيرانها الأيائل و الغزلان و الخراف و تنحر الجمال ، و ضرب الدف فى كل حدب و صوب .

و فى أحدى الخيام الفارهة ، جلس مالك بن العجلان و بجانبه عريس

شقيقته ، يتوسطا جمع زاخر من علية القوم ، و الإبتسامات العريضات ترسم على الوجوه ، مُعبرة عن السعادة الكامنة فى الصدور ، و التى تفضحها العيون دون خجل ، و الأكف النشطة ، الضاربة بالأقداح ، و من بين صخب الحفل ، تراءى إلى سمع مالك صوت شقيقته ، تقف على باب الخيمة ، فنهض مُسرعًا و قد جذع ، و تبدلت ملامح وجهه ، و هو يقبض على كتف شقيقته ، و يقول ناهرًا إياها :

-ماذا أتى بك إلى هنا ؟ .. أصبئتى عن عاداتنا يا ابنة أبىّ و أمىّ ؟ .. لقد حق عليك الرجم و سفك دمك ؟

-ترحم بىّ يا أخىّ ، فوالله ما خرجت من خيمتىّ و أتيت إليك إلا لمكروه سيلم بىّ و بك و بعرب يثرب كلهم .

لمح مالك الدموع تترقرق من عينى أخته ، فصاح فيها سائلاً :

- ماذا بك ؟ .. ما سر هذه الدموع يا ابنة أبىّ و أمىّ ؟ .. فلم يخلق بعد من يوتر أخت مالك بن العجلان سيد أسياد الأوس و الخزرج .

- لقد .. لقد ...

- ماذا هناك ؟

طرقت فى حياء و هى تقول :

- منذ دقائق قليلة أقتحم رجلٌ غريب خيمتىَّ ، و أبلغنىَّ تهديدًا فيه كرب عظيم الشأن للعرب .

- لقد أراد بىَّ أن أهدى لغير زوجىَّ ، و أن أهدى إلى ....

- إلى من ؟

- إلى الفيطوان .. رجل اليهود ، ذلك و إلا سيقتل زوجىَّ قبل أن يدخل عتبة خيمتىَّ .

- ماذا ؟ .. الفيطوان ؟! .. ذلك الأبق ابن الأنجاس .. نحن من منح اليهود الجرأة علينا .

- فداك نفسىَّ يا أخىَّ .

- أغربى عن وجهىَّ الأن ، و ألبثى بخيمتك حتى أحضر إليك .

و رحلت الفتاة المكروبة خفية ، كما أتت خلسة ، على حين أختفى مالك بدوره ، و قد هجر مجلسه ، و الدماء العربية تغلى و تثور و تجور فى عروقهِ .. لابد من القصاص من الفيطوان ، و سائر اليهود ، الذين لم يبقوا على ميثاق و عهد .. لابد .

- ٣ -

فى داخل خيمة الفيطوان بأرض الفريسيين من يهود يثرب ، كان هذا الآخير يجول فى خيمتهِ ، ذهابًا و إيابًا ، مشرقـًا و مغربًا ، عاقدًا ذراعيه خلف ظهره ، و قد بدا كالليث الذبيح ، أو كالموتور الذى ينتظر حكم الموت رجمًا .

و قد دخل عليه أحد جنوده فجأة ، و هو يقول :

- يوجد امرأتان بالخارج .. تدعى أحدهما أنها شقيقة مالك بن العجلان .

- و الآخرى ؟

- تدعى أنها صديقتها و شقيقة بعلها .

- أدخل شقيقة مالك وحدها .. أسمعت وحدها ، أما الآخرى فهى لكم .

ذهب الحارس ، و قد تهللت أساريره ، و أنتعشت رجولته ، على حين بدا الفيطوان سعيدًا ، و هو يتخذ موضعًا ما أمام باب الخيمة ، حتى يستقبل هديته عند دخولها ، ليضمها إلى صدره سريعًا ، و هو يُردد :

- لكم أشتقت لك يا ابنة العرب .

و لكن الحارس دخل عليه مرة آخرى ، و وجهه يقطر تجهمًا و حزن ، و هو يُردد :

- إن الفتاة ترفض الدخول إلى خيمتك إلا برفقة صديقتها ، فهى تدعى أن حيائها يمنعها أن تهدى لرجل أجنبى عنها ، فجاءت لك بصحبة رفيقة .

- حسنًا أدخلهما .. فلن تضير فتاة آخرى .

و ذهب الحارس ، و هو يلوى شفتيه فى إزدراء ، ثم عاد مرة ثانية و خلفه فتاتين ، متشحات بالسواد ، من أخمص قدميهما و حتى رأسهما ، لم يظهر منهما سوى العيون الجزعة .

- ألن تخلعا هذا السواد ، و تدعانىَّ أنهل من جمالكن يا نساء العرب ؟

بدت أحدى الفتاتين متوترة ، ثائرة ، على حين أنجذب الفيطوان نحو الآخرى ، و أقترب منها كالأسد الذى يخطو نحو فريسته ، ثم قبض على طرف ثوبها ، و هم أن يخلعه عن الفتاة ، لولا أن تصلبت ذراعه فى الهواء ، و قد علقت فى كف قوية ، و قد بدا صوت قوى ، خشن جهورى ، يدوى من خلف أذنه مُرددًا :

- ثكلتك أمك يا ابن أوى .. لقد كتبت خاتمتك بيدك يا ابن أنجاس الأرض .. هيا أقبض على سيفك و قاتلنىَّ لينفذ أمر الله فيك .

ألتفت الفيطوان خلفه ليرى الفتاة الآخرى ما هى إلا مالك بن العجلان ، و قد تنكر فى ثوب امرأة ، و قد أشهر سيفه تجاه عنقه ، و سرعان

ما قبض على سيفهِ ، ليبدأ القتال بين الفيطوان و مالك ، و كلاً منهما قائد لطائفة .. الفيطوان سيد اليهود فى يثرب ، بينما مالك بن العجلان سيد الأوس و الخزرج ، و كلاً منهما فارس محنك ، شديد الدهاء .

و لكن القتال لا يعرف إلا الموت أو الحياة ، لا يعرف شئ سواهما ، لابد أن يموت أحدهما حتى يحيا الآخر .

و دوت صرخة الفتاة ، مع توقف القتال ، و سقوط أحد الرجلين صريع ، مُدرج فى دمائهِ .

- أخىَّ ...

ضم مالك أخته إلى صدره ، و هو يقبض على سيفه ، ليخرج بها خارج تلك الخيمة ، و خارج أرض الفريسيين كلها ، لتهدى إلى زوجها .

و كان مالك يعزم على تلقين اليهود درسًا لن ينسوه ، و طردهم خارج يثرب كلها ، ليحيوا فى الفيافى و الشعاب ، لعلهم يصنعون أرضًا لهم يفسدون فيها كما يشاءون .

و كان لا يعلم أحدًا ما تطويه الأيام فى جعبتها .

العمل الرابع





(ك) كانت الحجرة معتمة ، شديدة الظلمة ، كأنها قبر ، كان يتخلل ظلمتها أشعة باهتة من الضوء ، كان يصدر من ذبالة عشرات الشموع الملقاة في عناية عند أرجاء الحجرة .

كان جو الحجرة يضفي عليه رهبة و غموض ، و يُصيب الوافد بالذعر و الخوف الذي قد يُرديه قتيلاً ، و كان مناخ الحجرة معطر بنسمات عفنة ، كأنها حانوت قديم ، قبر فيه مواد غذائية قد أصابها العفن .

في مؤخرة الحجرة يتربع مضجعٌ ضخم ، من تلك المضاجع المعدنية ذات القوائم العالية ، و كان يُحيط به خمسة مقاعد ، كأنها السوار الذي يُحيط بالمعصم .

و كان يجثم على كل مقعد جثة لرجل ما ، كان يختفي في عباءة سوداء ، داكنة ، و كان يعلو رأس كل واحد منهم قبعة سوداء ، قاتمة ، تشبه الطبق ، و قد أطلق كل منهم لحيته في إهمال ، حتى كادت أن تعانق الأرض من شدة طولها ، و كان يتدلى على صدر كل منهم سلسلة يتوسطها نجمة سداسية الأضلاع ، يُطلق عليها نجمة داوود ، على حين كان يرقد جسد ضئيل على المضجع ، و قد غلف بثوب أبيض ، ناصع ، بدى شاذ مع مناخ الحجرة المعتم .

كان الصمت يغلف الحجرة كأنه الموت ، حتى قاطعه طريح الفراش ، و هو يقول بصوت واهن ، شديد الخفوت ، لا يكاد يسمع :

-يا أبنائىَّ .

سرعان ما أنتفضت الأجساد الخمسة الجاثمة على المقاعد ، و شخصت العيون ، لتستقر النظرات على وجه المريض ، و أصغت الآذان فى ترهف ، لعلها تمعن فى سماع تلك الحروف الواهنة ، على حين استطرد الكهل طريح الفراش قوله ، قائلاً :

-يا أبناء روتشلد .. انصتوا لما سأقوله .

صمت الكهل فجأة ، كأنه يُعلن للآخرين إنه سقط فى غيبوبةٍ أفقدته الوعى ، أو إنه انتقل إلى عالم آخر من الظلمات ، بعدما فرغت روحه ، و صعدت إلى السماء ، فسقطت قلوب الأبناء الخمسة فى أرجلهم ، و ألسنتهم تنادى على والدهم ، ذلك الكهل المسجى فى الفراش ، و قد استجاب لدعوتهم ، و هو يُردد ، و عيناه قد خوت من نور الحياة :

- انصتوا إلىَّ جيدًا يا أبنائىَّ .. لقد سعيت منذ وطأت قدمىَّ هذه الدنيا ، لتحقيق حلم واحد ، كان يُراودنىَّ منذ صباىَّ ، ألا و هو أن يكون لشعبنا وطن مستقل ، كسائر البلاد و الحضارات ، أن يكون لنا حضارتنا الخاصة بنا ، و إنجازات منا و إلينا تعود ، أن نبنى و نعمر فى أرض ملك لنا ...

قطع الكهل عبارته ليزدرد لعابه ، الذى بدا كأنه الحنظل ، و هو يسرى عبر البلعوم فى عناء ، كأن الكهل يأبى استصاغته ، على حين قال أحد الأبناء المتشحين بالسواد :

- و كيف لنا هذا يا أبتىَّ ؟

استطرد الكهل عبارته ، كأنه لم يسمع تعليق ابنه ، و هو يُردد قائلاً :

- كان حلمىَّ أن تسود اليهودية كل أنحاء الأرض ، فتمحو المسيحية دين عيسى ، و الإسلام دين محمد نبيهم المزعوم الذين نسبوه لأنفسهم ، على الرغم من إنحداره من سلالتنا نحن اليهود ، كما ينحدر جده إسماعيل بن إبراهيم من أمه ناحور .

علت حواجب الأبناء فى دهشة و تعجب ، كأنهم يستمعون لهذه الكلمات لأول مرة ، فقد صدر من أفواههم سؤالٌ واحد هو :

- محمد يهودى ؟!!

- نعم يا ابناء إسرائيل المقدسة .. و الأن أصبح العالم كله يمقتنا و يسعى لمحونا من الوجود .. منذ قديم الأزل ، و الكل يحاول أن يقضى علينا ، أن يقضى على وجودنا .. أنسيتم ما فعله الرومان بنا ؟ .. أنسيتم ما فعله ذلك البابلى نبوخذ نصر ، و ما أقترفته يداه من حرق الكتاب المقدس ؟ .. و لولا أحبارنا الذين يحفظون التوراة عن ظهر قلب ، لأختفت اليهودية من خارطة الأديان .. أنسيتم المسلمين

و اضطهادهم لنا ؟ .. لذلك يا أبنائىَّ لابد لنا من بلدٍ واحدٍ يجمع كل يهود الأرض ، لنصبحُ يدًا واحدة تبطش بأعدائنا ، و أنياب حادة تمزق كل من يُعرقل طموحاتنا ...

أبتلع الكهلُ عبارته على آثر سعال شديد أصابه ، جعل جسده يرتعد و ينتفض فى شدة ، كمن مسه ماسًا كهربيًا ، فأقترب منه أحد الأبناء يُحاول تهدأته ، و إخماد أنفعاله و هو يقول :

- هدء من روعك يا والدىَّ ، و ...

نفض الكهل يد ابنه عنه ، و هو يصرخ فيه :

- اصمت يا عدو اليهودية .. أغرب عن وجهىَّ .

أنزوى الابن فى ركن ما من الحجرة المعتمة ، و هو يتمتم ببعض العبارات المتذمرة ، على حين قال الكهل من بين سعاله :

- و من أجل هذا الحلم ، سعيتُ فى بناء دولة إسرائيل ، لتكون مهد كل يهودى ، لنعيد عهد داوود و سليمان ، لنبنى فيها ما هدمه البرابرة ، أعداء اليهود و السامية .. لنعيد بناء هيكل سليمان .

أنقلبت سحنة الكهل ، و قد تغلظت نبرات صوته ، و هو يقول :

- و لكن قبل ذلك ، لابد لنا أن نتسيد العالم ، أن نكسر وحدة العرب فى منطقة الشرق الأوسط و العالم أجمع .. و لكى نعيد بناء هيكلنا لابد من هدم مسجدهم ، الذى بنى على أنقاض هيكل سليمان

القديم ، نحن شعب الله المختار و أنتم أحفاد أسباط اليهود ، أنتم أحبار هذه الأمة .. انتشروا فى كل أرجاء الأرض ، سيطروا على أقتصاد العالم لترضخ لكم الدول العظمى قبل الدول النامية ، و لتقوى شوكتكم فى الشرق الأوسط ، متخذين لذلك عدة قواعد و بروتوكولات .

- و ما هى هذه القواعد يا والدىَّ ؟

- ألا تساندوا أى مسلم أو مسيحى ، إذا كان لك جارٌ غير يهودى مريض و يحتاج منك المؤازرة ، قدم له السم لا الدواء ، أبقروا بطون الحوامل من المسلمين و المسيحيين ، حتى لا يولد فيهم قائد يجمع شملهم ، و يوحد كلمتهم على ذبابة سيف يسعى للفتك بكم .. استغلوا كل السُبل المشروعة و الغير مشروعة للوصول لأهدافكم ، أسفكوا الدماء ، أقتلوا الشيوخ و النساء و حتى الأطفال ، فأطفال العرب هم فرسانها فى الغد .. استغلوا نسائكم فى الفتك بشباب العرب ، فقد حابى الله نساءنا بسحر و جمال لم تر الأرض مثله ، لا تجعلوا للحياء و الرحمة معنى فى قاموس حياتكم .. خذوا القديسة إستير و القديسة سالومى ابنة أنتيباطر خير مثال للتضحية فى سبيل إعلاء كلمة اليهود .. خذوا من وعد رئيس الوزراء البريطانى بلفور لىَّ ، منطلق لتكوين إسرائيل جديدة ، بجوار قدس الأقداس ، و ...

صمت الكهل ، و لكن صمته هذه المرة طال ، و جسده أبى أن

أن يستجيب لنغزات و دفعات أيدى الأبناء .

و كان صمت الكهل إيذانـًا لرحيلهِ حيث جنات الله ، التى مهدها لأبناء شعبه المختار .. بنو إسرائيل ، أحفاد يعقوب و من بعده يهوذا .

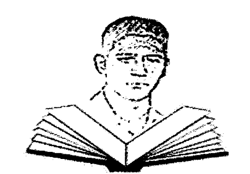
و بللت الدموع تلك اللحى السوداء ، و تفننت العيون فى تشييع أبيهم ، و لكن العقول كانت حائرة فى تلك الكلمات و تلك الوصية العجيبة ، التى خصهم بها والدهم روتشيلد ، أول من سعى لبناء إسرائيل الحالية ، و كان سؤالٌ واحدٌ يؤرق تلك العقول الخمس ...

هل سينجحوا يومًا ما فى بناء دولة إسرائيل بجوار قدس الأقداس ، و يهدموا ذلك المسجد ، و يبنوا عليه هيكلهم .. هيكل سليمان ؟

هل ... ؟

العمــل الخامس

ديوث أنت يا سيدي



١

انحنت امرأة نحيفة ، مشعسة الشعر ، سوداه ، لها عينين سوداوتين ، ذابلتينَ ، تنحدر منهما آلاف الدموع المنهمرة على قدم رجل ضخم الجثة ، قبيح الوجه ، أصلع الرأس ، له أنف معكوف ، و كرش ضخم .

قبضت المرأة على قدم الرجل الضخم ، الذى أنغمس فى ضحك هستيرى ارتج له كرشه بقوة ، بينما كانت المرأة تلعق ذرات التراب ، التى تغلف حذاء الضخم ، و تمتصها ، متوسلة إياه ...

- الطعام .. الطعام يا سيدىَّ .. من أجل أولادنا .. أرحمنا .

لقد كان هناك لفيف من الناس بلغ العشرات ، و قد يكون المئات ، كان معظمهم عراة الصدر من الرجال و النساء ، و طائفة آخرى لا ترتدى إلا ما يستر عورتها ، أما الأطفال فكانوا كما ولدتهم أمهاتهم .. عراة ، لأن الأباء عراة ، و الطبيعة من حولهم عارية ، و الحقيقة عارية ، و الظلم عارى ، يقبض كلاً منهم على حجارة صماء فى يد ، و عود ذرة جاف فى اليد الآخرى .

كان الجميع يتطلع لهذا المشهد العجيب ، منتظرين حدث ما .. جل أو تواضع شأنه ، المهم أنه شئ يُغير من وضعهم الرتيب .

و كان على رأس هذا الحشد من العراة ، زوج المرأة و ولديها ، و ...

لطم الرجل الضخم المرأة على وجهها بقوة ، حتى غاص وجهها

فى الرمال ، و أصبحت جثة هامدة ، تسيل الدماء من ركن فاهها ذى الشفتين الجافتين ...

شعر الزوج ببركان يوشك على الأنفجار .. و أقول يوشك لأنه كان مُتردد .. مهزوم .. غضبه لم يتخط صدره ، و كأن عشرات الرجال تقيد قدماه ، و كانت شفتاه ترتجفان بقوة ، و هى تتمتم ببضع كلمات لم يتضح منها سوى ...

-قذر .. قذر .

و لكنه ظل صامت ، جامد ، ممتنع عن الدفاع عن زوجتهِ و تقبل إعتداء الرجل الضخم ، السافر عليها ، و وقف يتابع هذا المشهد الهزلى ، كسائر الناس .. كأنه لا تربطه بهذه المرأة أدنى صلة .

أخذ الرجل الضخم يقهقه بقوة ، و هو يُداعب كرشه ، كأنه أتى بعمل عظيم يفتخر به .

و أخذ يُحدق فى عيون اللفيف الذى يُحيط به بنظرات خاطفة ، و أرتكزت عيناه على زوج المرأة الواجم ، الغاضب ، المُستسلم ، الثائر ، انحنى الرجل الضخم ، و ألتقط المرأة المتكومة داخل نفسها بيده اليمنىَ ، و ضمها إلى صدره ، و هو يعتصر أثدائها الجافة ، و بقوة ضغط شفتيها بين شفتيه ، و هو يرتشف دمائها المنسالة فى لذة و نهم صرخ الزوج متوجعًا ، فأمتد اللسان المشقوق بسرعة يلتهم صرخته

، بينما تألقت العيون ، و سرت الدماء لتلون الجلد الجاف باللون الأحمر الباهت .

و عندما استدار الرجل الضخم بالمرأة ، ليدخل خيمته ، كانت السماء تمطر قطعًا من الخبز ، تلقفتها الأصابع و الأفواه .

و من بين هذه الأصابع و الأفواه ، أصابع الزوج و فاهه ، و قد نسى زوجته التى ترتمى بين أحضان رجل آخر .

و من بين هذه الجموع التى تفرقت خلف قطع الخبز المبتل ، وقف شاب فى منتصف عقده الثالث ، مُتسمرًا كالمسمار ، و هو يحتضن بين ضلوعهِ امرأة صغيرة السن ، بدا عليها الخوف و الرعب .

على حين بدا الشاب واجمًا ، كأنه عمود من الصلب ذرع فى الأرض ، و قد كانت الذكريات تعصف بنفسهِ ، كأنها عاصفة عاتية ، تتلاعب به ...

هذه هى القرية التى طردنا إليها ، لا يخرج منها من يدخلها ، و التى إن سرت فى دروبها - مهما تحركت - وجدت نفسك فى مكانك لم تتحرك .

و كان هذا الرجل الضخم هو المتصرف فى حياتنا ، يتخير واحدة من نساءنا كل أسبوع مقابل طعامنا ، تمضى معه ليلة ، ثم يتركها لتعود لزوجها مع أشعة الفجر الأولى ، عندما يكون الندى لا يزال يثقل

أوراق الذرة العريضة .. فيتكثف ، و يتجمع ، و ينسال إلى الأرض الرمادية العطشى ، فتمتصه كأن لم يكن ...

و الأحلام عندنا نوع من الترف ، و هبة يحرص من ينالها على كتمان سرها ، فلم تكن الأفاعى تدع منها واحدًا ...

عاد الشاب لعالمه الملموس ، متخليًا عن شروده ، على آثر صوت الفتاة التى تستكين بين ضلوعه ، كأنها أرنب صغير يحتمى بشجرة عملاقة من برد المُناخ ، و قد كانت نبرات صوتها المُتهدج ، كادت تفقد كيانها من هول الرعب الذى حاق بها ، و هى تقول فى توجس :

- هل ستتركنى لهذا الرجل الأسبوع المقبل ؟ .. هل ستترك زوجتك لهذا الوحش ينهل من شرفها ما يشاء ؟

لم يحر الشاب جوابًا ، و لكنه لاذ بالصمت و هو يُحدق فى وجه زوجته المتساءل ، المتوسل ، و قد تفصد بالعبرات ، التى قرحت مقلتيها .

- لا أظن ذلك يا حبيبتىَّ .

و سار و هو يحتضنها بحب ، ليبثها شيئا من ثقتهِ الزائفة .

و بعد أسبوع ...

وقف الرجل الضخم ، و أسفل قدمه امرأة ...

كانت تشبه تلك الزوجة الشابة ، التى كانت تحتمى الأسبوع الماضى

بكلمات زوجها ...

أخذت الزوجة تجوس بنظرها بحثًا عن زوجها ، الذى وعدها بأن يسبغ حمايته عليها ، و ينقذها من براثن هذا الوحش ، و يُحافظ لها على شرفها ، و لكن عيناها أرهقت من البحث عن زوجها ، و ...

التقطها الرجل الضخم من الأرض ، و ضمها إلى صدره ، ليعتصر أثدائها الجافة ، و ينهل من شفتيها التى فارقت الحياة ...

و مازالت عيناها تبحث عن زوجها ، و لكنها لم تر سوى هذه الوجوه التى تتعطش لبعض القطع من الخبز المبتل ، و مطرت السماء بملايين القطع من الخبز ، و قد اختفى الرجل الضخم داخل خيمته ، و قد أرتمت الزوجة المسكينة على فراشه ...

و ...

و من بعيد ...

بعيدٌ جدًا ، كان يقف شبح رجل على أحد قمم الخليل ، يُشاهد هذه اللوحة الدرامية و هو يذرف عشرات الدموع ، و ...

العمـل السادس

صراع بين مرادفات الكون



تقدمتُ بخطى ثقيلة ، مضطربة ، و قد سيطر علىَّ الخوف و القلق و الأضطراب ، حتى أننىَّ تخيلتُ أن الأرض كانت تميد بىَّ ، فبدت لىَّ كالأرجوحة التى تنفضنىَّ من عليها من حين لآخر ، و أنا أقتحم بوابة أحدى قاعات المحكمة ، لأجد نفسىَّ واحدًا ضمن عشرات الحضور التى تعج بهم القاعة ، و قد ألتقم كل واحدٌ منهم أذن جاره ليغذيها بشتى العبارات الدهشة من حدوث مثل هذه الحادثة المروعة ، المتسائلة عن سر هذا الحادث البشع ...

بدت لىَّ القاعة لأول وهلة أنها لن تضمر لىَّ بباطنها مقعدًا يحتوينىَّ ، و لكن بعدما سبحت عيناىَّ بين مقاعد قاعة المحكمة التى بدت لىَّ كشواهد القبور ، و قعت عيناىَّ على مقعد خال ، فأسرعت الخطى نحوه كأنىَّ أعدو فى سباق ، و لكى أفوز بالكأس لابد من نيل هذا المقعد ، لتذوب حراشيف جسدىَّ الساخن على ذلك الخشب البارد ، كما لوح الثلج .

و جلست على المقعد ، و قد بدأت أنفاسىَّ المتلاحقة فى الهدوء ، و بدأت سريرتىَّ فى الاستقرار ، و عيناىَّ فى التعود على ما تبصره .. كان مقعدىَّ يتوسط رجلين ، كانا يتدثران فى ثوب يُشبه ثوب عامل البريد ، الذى يجوب الشوارع و الميادين باحثا عن أصحاب

الخطابات و الطرود التى يحملها بين أصابعه ، فقد كان الأول مليح الوجه ، أبيض البشرة ، كأنه القطن فى ميقات أزدهاره ، باسم الثغر ، تجبرك ملامحه الهادئة على التخلى عن تجهمك و شرودك ، و تجعلك تتصاغ لإبتسامته لتبادله بمثلها ، على حين كان الآخر دميم الملامح ، غليظ البشرة ، و قد ضرم الصلع فى رأسهِ كالأرض التى فرط الفلاح فى جز حشائشها فبدت كالطريق المعبد التى تنعكس عليه أضواء القاعة ، و قد كان له حاجبان غاضبان ، و قد أعلنا أحتجاجهما بأن أرتفع كل واحد منهما متخذا شكل رقم ثمانية ، و قد نفر كل منهما من الآخر ، و كانت شفتاه الغليظتان تعلن ثورتها على الإبتسام ، فآثرت بالإلتواء و قد مُطت فى إزدراء ...

كان الأول تشم منه ريح المسك ، أما الثانى فتأنف من رائحته الخبيثة ، و تود أن تفر من جواره ، و لكن إلى أين ؟ .. القاعة تعج بالحضور ، لتشاهد و تسمع مصير المتهم ، الذى كتب علىّ أن أكون واحدًا ممن شاهدوا فعلته ، و أكون ماثلا هنا فى المحكمةِ لأضع العدل فى نصابهِ الصحيح ، و أجعل حبل الحق يلتف كالحية الرقطاء حول عنق هذا الأبق ، الشارد ، التائه عن فلك المجتمع ، و سُنة الكون ...

و شيعت نظرة متعجلة ، غير فاحصة على وجه المتهم ، و هو قابع داخل قفص الأتهام كالأرنب المذعور ، و قد كانت عيناه وطفاء ،

متوجسة ، كأنها تطلب الصفح و الغفران من المجتمع ، الذى ذبحه بسكين تلمة ، متمثلا فينا نحن الحضور بالقاعة ، و ...

- محكمة .

صاح بها حاجب المحكمة بصوتهِ الجهورى ، معلنا أقتحام هيئة الحكم للقاعة ، فقضى الصمت نحبه ، و قد تخلى الحضور عن ألتهام آذانهم بلغو الحديث ، و نحن نستقبل العدل فى تبجيل و أحترام مُتمثلا فى هيئة الحكم ، و جلسنا ...

و أخذت الأحداث تمضى فى مسارها الطبيعى ، فها هو ذا محام المتهم يرغى و يزبد ، مُحاولا أن يبحث عن ثغرة فى القانون ينفذ منها لعله يقتنص لموكلهِ البراءة ، التى بدت لنا مستحيلة النيل ، و لكنها بدت كالقشة التى تسبح على بعد أمتار من شخص كاد أن يغرق فى لجة الماء ، فود أن يدنيها منه ليتحصن بها ، ولكن هيئة النيابة التى تمثلت فى وكيلها هدمت ذلك الصرح الشاهق ، الذى أخذ محام المتهم يُشيده بصبر و حنكة و خبرة قد استمدها من سنوات عمره التى قضاها فى ساحاتِ القضاء يرتع بين قاعاتها ، كالطفل الذى يلهو بين أسوار الحوارى و الأزقة ، و هو يقذفه بعشراتِ الأدلة و البراهين ، التى تدين ذلك الرابض خلف الأعواد الحديدية السوداء ، و حانت لحظة الحسم و الفصل ، التى ستعجل بسدول الستار على هذه المهزلة

التى أبتدعها هذا الزنيق ، و قد طلبت هيئة المحكمة الاستماع للشهود ، و قد كنت أنا واحدًا منهم ، فقد كنا ثلاثة أشخاص رأينا و سمعنا فصول الجريمة ، التتى أقترفتها يد هذا المتهم ، و بالطبع لن يجرؤ أحدنا أن يُحيد عن الحق ، لينغمس فى الزور .

و عندما أعلن رئيس المحكمة رغبته فى سماع الشهود ، وجدت جارى - ذلك الدميم - ينهض فى عجلةٍ من أمره ، و قد أبصرت بين أصابعه مظروفين صغيرين كان لهما لون الدم ، و أخذ يعدو نحو رجلا ما كان يجلس فى ركن قصى من القاعة ، لم أتفرس فى ملامحه جيدًا ، و لكنىّ أبصرت جارى الدميم يُحاوره بحدة ، مادًا إليه كفه و قد استقر بها أحد المظروفين ، و قد نحاه الرجل جانبًا ، فاستشاط جارى الدميم ، و كاد أن يلتهم الرجل بنظراتهِ ، و صوتهِ المنفعل ، الذى لم يتراءى لسمعىّ أيًا من حروفهِ المطموسة .

- الشاهد الأول .. السيد ...

لكز الرجل جارى الدميم لينحيه جانبًا ، آخذا دربه نحو هيئة المحكمة ، ليمكث أمام أعضائها و يُقسم اليمين على إسداء القول الحق ، تاركا جارى مشتعل الرأس ، شديد الثورة ، على حين كان جارى الآخر مازال يحتفظ بإبتسامته ، و قد هيأ لىّ إنها أتسعت قليلا عن ذى بدء ، و بدت مفعمة بالسعادة بعض الشئ .

إذا الرجل الذى تشاجر معه جارى الدميم هو أحد الشهود الثلاثة ، الذى أخذ فى سرد ما لديه من حقائق كما أبصرها و أبصرتها أنا ، و الشاهد الثالث ، و ...

- عجبىّ على رجال هذه الأيام !

قال هذه العبارة جارىّ الدميم و هو يجلس على مقعده ، و قد بدت ثورته هادئة بعض الشئ ، عما كان عليه منذ نيف من الدقائق ، و أخذ يُحدق فى ذلك المظروف الدموى الذى يرقد بين أصابعه فى استسلام ، و هو يتحسر عليه ببعض الكلمات التى أُغمدت فى وعاءٍ من الحسرة و الحُزن العميق ، كمن ينعى ولدًا له ، قبل أن يُسكنه موضعه الأول فى جيب سرواله الداخلى ، و هو يُحدق فى جارىّ الآخر بعين نارية بدت كأنها جهنم الحمراء ، و هو يُردد :

- لقد ربحت جولة أيها الزنديق .

- و أنت إيضًا ربحت جولة .

- و لكنه أهاننىّ .

- هذه طبيعتك ، فالإهانة ديدنك منذ مولدك ، و النفور منك يسرى فى أوردتك مسرى الدم ، لأنك تسعى فيما لا خير فيه للناس .

- و لماذا لا تشقى أنت مثلىّ ؟

- لأننىّ أسعى خلف وضع الحق فى نصابهِ ، لأرتقى بالنفس

البشرية إلى سموات العدل العلا ، لأقصيها عن غوايتك .

لم أفهم ما يدور بين جاريَّ من حديث و عبارات مُبهمة ، لن أخرج منها بمنفعة قط ، فأخذت أرقب دخول شاهد العيان الثانى ، الذى مثل أمام القاضى ، الذى قال له عبارته المشهودة :

- أقسم أنك ستتفوه بالحق .

- أقسم بالله العلى العظيم أننى سأقول الحق .

- ماذا رأيت ؟

- رأيت ماذا ؟ .. لقد كان الليل حالك السواد كالحبر ، و مع هذا فقد شاهدت بعض أعمدة الإنارة ، التى كانت تزين الطريق ، فتبثه بعض أشعتها الواهنة ، التى أغتالتها ظلمة الليل .

- و ماذا بعد هذه الديباجة ؟

- ديباجة ! .. أنا لا أفهم مقصدك يا سيدىَّ القاضى .

- سؤالىَّ واضح .. ماذا رأيت ؟

- لقد أخبرتك يا سيدىَّ ، أن الليل كان حالك السواد ، فلم أبصر سوى بعضًا من أعمدة الإنارة .

- ثم ...

- ثم ماذا يا سيدىَّ ؟

- هل رأيت هذا الرجل الماثل فى قفص الإتهام فى أمس

الأربعاء الماضى ، بالقرب من المنتزه العام ؟

أخذ شاهد العيان يتمعن فى وجه المتهم قبل أن يجزم قائلا :

- لا يا سيدىّ .. لم يكن هناك .

- و كيف لك أن تجزم بعدم تواجد المتهم فى الساعة و التاريخ المحدد بالعين المذكورة ، على الرغم من قولك أن الليل كان حالك السواد ، دمس ، تصعب فيه الرؤية ؟

تململ الشاهد ، و تلعثم لسانه ، و قد اضطربت نظراته ، و هو يُحدق أسفل قدميه ، كأنه يبحث عن الإجابة بين ذرات التراب الساجدة أسفله ، قبل أن يقذف بكلماتهِ كأنها الطلق النارى ، قائلا :

- لقد كان المنتزه شبه خالى يا سيدىّ الرئيس .

- حسنا .. حسنا .. صهين و اذهب .

هرول الشاهد مبتعدًا عن القاعة ، و هو يُربت على جيب سترته ، ليغيب عن الأنظار ، و قد أشتعل فتيل الحمية داخلىّ ، و صرخ ضميرىّ ليُعلن أحتجاجهِ على شهادة الزور التى تفوه بها هذا الشاهد ، الذى أراد بكلماتهِ أن يُضلل العدالة ، و يجعل ميزان العدل يخر ساجدًا أمام الزور ، فنهضت ثائرًا ، و أنا أهم أن أقرع ناقوس العدل فى القاعة و أدين ذلك الشاهد ، و أشجب هذا التدليس ، لولا أن وجدتُ ذراعان قويتان تجذبانىّ إلى مقعدىّ لألتصق به .

كانت الذراعان القويتان أحدهما ملك لجاريَّ البشوش الذى يرقد على يمينيَّ ، و الآخرى لجاريَّ الثانى الذى يرقد على يساريَّ .

- ماذا هناك ؟

- انصت لنا يا سيديَّ بروية و تمعن .

- ماذا هناك ؟

قدم ليَّ كلا منهما مظروف ، كان البشوش يعرض عليَّ مظروف أبيض اللون كما بشرته الثلجية ، على حين قدم ليَّ القبيح مظروفه الدموى ، الذى شاهدته بين أصابع يده .

- ما هذا ؟

قال القبيح فى غلظةٍ :

- كما ترى .. مظروفان .

- أعلم أنهما مظروفان ، و ماذا بعد ذلك ؟

قال البشوش :

- عليك بأختيار أحدهما يا سيديَّ .

- و لماذا أختار أحدهما ؟

قال البشوش :

- حتى تدلى بشاهدتك .

- و ما لشاهدتيَّ و هذه المظاريف ؟

قال البشوش :

- أنها مفتاح الشهادة ، أحدهما يمثل كفة ميزان العدل اليمنى ، و الآخرى تلك الكفة اليسرى ، انظر لجدران المحكمة .. ماذا ترى ؟

حدقت فى جدران المحكمة فى دهشةٍ ، فلم أبصر أى شئ غريب ، فأجبت فى دهشة :

- لا شئ يا سيدىً .

قال القبيح بصوتهِ العريض ، الخامل :

- يا لك من غبى ! .. ألم تبصر ذلك الميزان القبيح ، الذى يعلو كل جدار قبيح فى المحكمة .

قلت فى اضطراب و أنا أمسح ببصرىً جدران القاعة مرة ثانية :

- نعم .. ابصره .

قال البشوش :

- لكى تسمو إلى أحد كفتيه فى شهادتك ، لابد أن تختار أحد هذين المظروفين .

قلت فى تحدٍ :

- و لماذا ؟

قال القبيح :

- هكذا أيها الغبى .

-و لماذا أنا دون سائر شهود العيان .

قال البشوش :

-كلا منهما اختار مظروفه .. فالأول أخذ مظروفه منىَّ .

قال القبيح :

-و الثانى منىَّ .

و هنا تدفقت صورة جارىَّ القبيح و هو يتشاجر مع الأول ، الذى نهره ، و زجره ، و رفض أن يأخذ منه ذلك المظروف الدموى ، على حين أقبل عليه الشاهد الثانى ، و طمس المظروف فى جيب سترته .

- أيهما اختار ؟

قال البشوش و هو يُحدق فى وجهىَّ بابتسامتهِ المعهودة :

-لك مطلق الحرية فى أن تختار ما شئت .

قال القبيح مُصادرًا :

-ذو اللون الدموى طبعًا ، فهو خير معين للشهادة .

صحتُ فزعًا :

-من أنتما ؟

- الشاهد الثالث .. السيد ...

نادى حاجب المحكمة على اسمىَّ ، طالبًا مكوثىَّ أمام هيئة القضاء ،

فنهضت مهرولا كمن مسه تيار كهربى ، موجهًا خطواتىَّ نحو منصة الأعتراف - كما كنت أطلق عليها - فكانت هذه المنصة تمثل لىَّ ستارًا ، إذا أسدل على الحقائق طمسها ، و مال ميزان العدل عن نصابهِ و أختل ، و إذا رفع و أنقشع ضبابه ، ظهرت الحقائق ناصعة ، بينة ، كما أشعة الشمس النقية ، متناسيًا ما دار من حوار بينىَّ و بين أصحاب المظاريف الملونة - البيضاء و الحمراء - مُتخذا دربىَّ نحو الشهادة .

و أثناء خطواتىَّ المضطربة ، وقع بصرىَّ على مظروف أبيض علق بين أصابع يدىَّ ، كأنه يستغيث بها من شئ ما ، جعله موتورًا ، فتسمرت قدماىَّ فجأة ، كأنهما وتدان دقا على هذه البقعة التى أقف عليها ، و أنا أحملق فى ذلك المظروف الأبيض فى دهشةٍ و ذهول ، متسائلا عن كيفية وجوده بين أصابع يدىَّ ، كأنه نبت شيطانى وجد على صفحةِ يدىَّ دون استئذان منىَّ .

ألم يكن هذا المظروف ملكا لجارىَّ بشوش الوجه ، سمح الطلعة ، و قد عرضه علىَّ منذ لحظات ؟ .. و لكنىَّ لم أقطفه من يدهِ ، فكيف له أن يصبحُ بين أصابعىَّ ؟

و ألتفت خلفىَّ حيث مقعدىَّ لأبصر ذلك الرجل صاحب المظروف ، و من منحنىَّ إياه ، فألفيت إبتسامته الرقراقة كما جدول الماء ، ثابتة

كما تركتها ، كأنها نحتت على صفحةِ وجهه .

-تقدم أيها الشاهد .. لماذا توقفت هكذا ؟

قال رئيس المحكمة هذه العبارة ليخرجنىَّ من شرودىَّ ، لألمس أمر هذا المظروف الذى دفنته فى جيب سترتىَّ ، لأواصل دربىَّ نحو منصة الأعتراف ، لأقسم باسم خالق الكون على قول الحق ، و التنحى عن شهادة الزور ، و أخذت العبارات تنهال منىَّ كتدفقات الماء التى تنهال من أعلى قمم الجبال ، و قد أنتابنىَّ شعورٌ غريبٌ ، أخذ يدفعنىَّ لأجتث الحقيقة من داخلىَّ ، و البحث عنها بشمعةٍ داخل نفسىَّ المظلمة .. أنتابنىَّ شعورٌ بأننىَّ مُصيرٌ فى شهادتىَّ و لست مُخيرٌ ، على الرغم من نيتىَّ المُسبقة فى الإدلاء بما شاهدته و سمعته و انتهت الجلسة و قد تم إدانة المتهم ، و حكم عليه بما يستحقه جراء ما أقترفته يداه ، و انفض مجلس الحضور .

كنتُ أول فرد من الحضور خرج من القاعة ، و تسمرت على بابها ، راغبًا فى الحصول على إجابةٍ لسؤال يلح فى رأسىَّ .. من كان يجلس بجوارىَّ ؟

و لكن الحضور انصرفوا ، و لم يبق أحدٌ فى القاعةِ ، و لم ابصر بعد الرجلان اللذان جالستهما منذ دقائق ، لم ابصر صاحب الطلعة الباسمة ، و لا حتى صاحب الرأس اللامعة ، و تذكرت ذلك

المظروف الأبيض الذى وجدته بين أصابعىَّ ، ثم وضعته داخل جيب سترتىَّ ، عندما دعانىَّ رئيس المحكمة للإدلاء بشهادتىَّ .

مددت يدىَّ فى جيب سترتىَّ و أنا واثق من وجود المظروف ، و لكنىَّ أخرجتها خاوية على عروشها ، كأن ما بجيب سترتىَّ قد تبخر.

و زحفت الدهشة إلى رأسىَّ ، لترسم آياتها على قسمات وجهىَّ ، و قد بديت كالمجنون و أنا أخلع سترتىَّ و أبحث فى كل شق بها عن ذلك المظروف ، دون جدوى ، كأنه ذرة ملحية قد اسقطتها فى وعاء زاخر بالماء فذابت و اختفت ...

و لكن من بين ظلمة رأسىَّ ، و شدة أنفعالىَّ لاح لىَّ أمل ، ألا و هو أن يكون المظروف قد سقط داخل قاعة المحكمة ...

و سرعان ما لبيت النداء ، مقتحمًا قاعة المحكمة للمرة الثانية ، متملصًا من ذلك الحارس الذى يقف على بابها ، مُتعللا بفقدانىَّ لشئ ما داخل القاعة .

و أخذت أصابعىَّ تبحث بين المقاعد عن المظروف ، و بصرىَّ يجول الطرقات و الممر ذهابًا و آيابًا دون جدوى .

و خرجت خارج القاعة ، و كذلك المحكمة كلها ، لأفترش ذلك الأفريز المقابل لها ، و أنا أتساءل فى دهشةٍ عارمةٍ عن سر ما حدث لىَّ ؟ .. و من جالست و حاورت ، و تصارعت و تجادلت ؟ .. و أين

ذلك المظروف الذى رقد بين جنبات سترتىَّ ، ليُعاشر حرارة جسدىَّ ، و يُطالع ذلك العرق الغزير الذى تفصد من خلايا جسدىَّ ، و يُضاجع دقات قلبىَّ فى سكون ؟ .. هل كل ما مررت به كان حلم ؟ .. و لكنىَّ أرقد أمام ساحة القضاء ، و مازال حكم القاضى يدوى فى أذنىَّ .. ((لقد حكمت المحكمة على المتهم (..) بإحالةِ أوراقهِ إلى فضيلة مفتىَّ الديار المصرية ، لما أقترفته يداه من إزهاق لخمسة أرواح عن عمدٍ و قصدٍ .. رفعت الجلسة)) .. و ذلك العويل و النحيب الذى دوى فى القاعةِ ، مخلوطا بزغاريد ذوى الضحايا ، لتصم جدران القاعة .. مازال مشهد المتهم ، الذى فقد القدرة على الصمود ، و قد تخلت قدماه عن حملهِ ، ليُصبح كومة من اللحم البشرى عند قاع قفص الإتهام عالق بذهنىَّ .. إذا أين ذهب الرجلين ؟ .. و أين ذهب المظروف ؟

و حاولتُ أن ألملم شتات نفسىَّ فى هدوءٍ و رزانةٍ ، مُتخذا ما حدث لىَّ و للشاهدين الآخرين خيط استدل به على الحقيقة .

إن الشاهد الأول رفض أن يحصل على مظروف جارىَّ الدميم ، على حين أقبل عليه الشاهد الثانى ، و تنحيت أنا عنه ، لأجد بين أصابعىَّ المظروف الأبيض .

الشاهد الأول أدلى بالحقيقة كما شاهدها و شاهدتها أنا ، و على

النقيض تمامًا ، خالف الشاهد الثانى ضميره ، مُحاولا تشويه صورة الحق ليتدثر بالزور ، و ...

الحق و الزور ...

نعم إنه الحق و الزور ، إن الصراع الدائر بين الرجلين ، كان صراعًا بين الحق و الزور ، أيهما ينتصر على الآخر ...

لقد كنت أجالس الحق و الزور ...

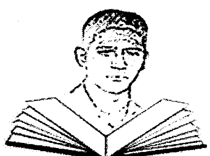
و نهضت من مرقدى مزهولا و أنا أردد فى ألحاح غير مُصدق ما وصل إليه رأسىً :

- أنهما الحق و الزور .. أنهما الحق و الزور .

العمـل السابع



ابتــلاء أيــوب



ي

يبدو أننىَّ تأخرت عن موعد عملىَّ ، لذلك أخذت أنهب الأرض نهبًا ، و تتسارع خطواتىَّ فى اضطراب ، مُتخبطة فى بعضها البعض ، و عينى تبصر ما حولها بنظرات زجاجية ، غير فاحصة لما تراه ، و أذنىَّ لا تصغى لما يدور حولها من عبارات يتصايح بها العامة ، كان همىَّ و أهتمامىَّ منصب فى الوصول لمكان عملىَّ مُسرعًا ، حتى لا تسمع أذناىَّ عبارات نابية ، حينها ستصغى لها مُجبرة ، و لا ترى عينىَّ من المشاهد ما يبكيها ، حينها ستراها مقهرة .

- إبتلاء أيوب كان عظيم .

رنت هذه العبارة فى أذنىَّ ، كأنها ألف جرس يدوى فى محراب أذنىَّ كانت هذه العبارة منطلقة من جوف مكبر للصوت ، و على الأرجح أنها صادرة من حنجرة شيخ فى أحدى المساجد ، التى تهتم بألقاء بعض الدروس و النداوات الدينية بعد صلاة العصر ، لذلك لم أعر أهتمامىَّ لما سمعت ، و محوت كل أثر للأهتمام الذى سلبته هذه العبارة الرنانة منىَّ .

- و عن القساوسة الأوائل الذين قالوا فى هذا الشأن ...

عادت العبارة الرنانة تخترق أذنىَّ ، و لكن هذه المرة بعنفٍ ، كأنها تصر على لفت بصيرتىَّ لشئ ما تعمدت تلاشيه ، حتى أصب

أهتمامىَّ كله فى قدمىَّ لأصل لمكان عملىَّ مبكرًا .
و لكن شيئًا ما فى هذه العبارة ، جعلنىَّ أتسمر فى مكانىَّ ، و أمعن فيما سمعته ، و أختزنته خلايا مخىَّ الرمادية .

((عن القساوسة الأوائل ، الذين قالوا فى هذا الشأن ...))

ماذا .. القساوسة ؟

هذه العبارة جعلتنىَّ أنظر لما حولىَّ بعين فاحصة ، و ليست بعين زجاجية ، خاملة ، و بعدما جابت عيناىَّ الشارع الذى أتسمر فى وسطهِ لم أجد مسجدًا يرقد فى الجوار ، و لا حتى زاوية صغيرة ، و لكن بعد برهة من التفكير قادتنىَّ كلمة القساوسة إلى أن العبارات الرنانة قد تكون صادرة من حنجرة قس ، و ليست من حنجرة شيخ فى مسجد ، و جالت عيناىَّ فى الشارع للمرة الثانية ، و كانت النتيجة هذه المرة غير حصيلة المرة الأولى .. لقد كانت هناك .. هناك فى ركن قصى من حارة جانبية ترقد كنيسة صغيرة الحجم .

أخذت عيناىَّ تتفحص كل شبر فى واجهة الكنيسة ، كأنىَّ لأول مرة أبصر كنيسة ، و قد حُمل صوت القس من داخل الكنيسة ، ليرسوا فى أذان المارة دون استئذان أو دعوة بالأقتحام ، كأنه كان ينتظر أن تبصره عيناى ، ثم ينفجر بما يحمله من عبارات .

ـ عندما خلق الرب آدم أول المرسلين ، و أمر الملائكة

بالسجود له ، سجدوا فيما عدا أبليس ...

نعم .. أنا أعلم هذه الرواية ، التى تروى خلق آدم - عليه السلام - و سجود الملائكة له ، إلا أبليس أبى و استكبر أن يسجد لمخلوق من صلصال ، و هو الذى خُلق من نار ، و لكنه تناسى أن الخالق و الصانع واحد ، خالق آدم من الصلصال هو نفس الخالق الذى خلق أبليس من النار .. نعم .. أعلم هذه الرواية .

- و من هنا يا أبناء الصليب كان الشيطان عدو للرب و عدو للإنسان ...

حقًا .. صدق هذا القس ، منذ أبى أبليس أن يسجد لآدم الذى فضله الله - عز و جل - ليكون أول خلقه ، أصبح عدو الله - عز و جل - و للبشر منذ هبوط آدم للأرض و حتى فناء البشرية .

- و من روايات تحدى الشيطان للرب ، رواية إبتلاء أيوب .

ماذا .. أيوب ، نبى الله المختار ، المبتلى بالصبر ، و زوجه نعسة ؟
و لم أدر بنفسىَّ إلا و أنا أجلس على الأفريز المقابل للكنيسة - بالطبع لأنىَّ لا أستطيع دخول الكنيسة بما أنى مسلم الديانة - استرق السمع لكل كلمة يتفوه بها القس ، كأنى أنصت لشيخ فى أحدى خطب ما بعد صلاة العصر ، متناسيًا كونىَّ فى الشارع ، و المارة يتطلعون إلىَّ ، و فى عيونهم قرأت عشرات الأسئلة الحائرة ، و قد تناسيت موعد

عمليّ ، مُتعللا أن حديث القس لن يتأخر عن خمس دقائق أو ما يزيد قليلا" .

لقد تحدى أبليس الرب إنه سيغوى بنى البشر ، حتى لا يصبح وحيدًا فى جهنم ، فقال له الرب إنه سيفلح فى إغواء ضعاف النفس و سيضعف أمام المؤمن ، الذى يتمسك بتعاليم الرب ، فيأتى بأوامره و يتجنب نواهيه ، و هذا ما يهدف إليه الأنجيل يا ابناء الصليب ، التمسك بأوامر الرب و تجنب نواهيه ، و ما كان من ابليس إلا أن إختار أيوب المختار من قبل الرب ، ليكون هو التحدى بين الرب و أبليس ، و قد كان الإيمان و الصبر يُعمر قلبه ، و كان أيوب قد منحه الرب من الأرض بسطة ، و قد صارت جنات الرب على الأرض ، اينما تسير فيها تأتى أوكل ما تشتهى النفس من ثمارها ، و قد منحه من الأبناء بسطة ، من الذكور و الإناث من زوجةِ التى تدعى نعسة ، التى حاباها الرب بجمال خلاب ، و كان شطر جمالها منصب فى شعرها ، فكان جدائل من الإبرسيم الطويل ، و كما نقول .. جمال المرأة فى شعرها ، و كان شعر نعسة تاجها ، الذى توجها على نساء العالمين ، و قد منحه الرب من الصحة ما يهدم الجبال ، و يقهر الغزاة ، فقد كان خير اختيار لأبليس ، ليكون أيوب هو مقياس التحدى ، و لكن الرب هو صانع الكون ، و عليم بما فى النفوس ، و لا يختار

أنبياءه من ذوى النفوس الضعيفة ، و كل عمل ابن أدم مدون فى اللوح المحفوظ فى السموات العلا ، و كان غباء من أبليس أن يتحدى الرب فيما لا يستطيع الأتيان به ، و كانت الطامة الأولى ، التى سلطها الرب على عبده أيوب ليختبر مدى صبره على البلاء ، أن جعل السماء الدنيا تهزع ببريقها ، و تغضب و تزبد ، فتأتى بأرض أيوب العامرة ، و لا تتركها إلا كومة من الخشب المحروق ، و قد أخذت ألسنة اللهب المتأججة فى خمول و سكون ، بعدما مثلت لأوامر الرب فى التلظى و ألتهام ما يُصادفها ، و استيقظ أيوب من غفوتهِ ، ليجد جنته أصبحت أرضًا بوارًا ، قد كسى اللون الأسود على لونها الأخضر .. و لكنه لم يكفر .. لم يتذمر .. ليعترض على مشيئة الرب ، لأنه يعلم إنه إبتلاء و إمتحان لصبره ، و كان بداخلهِ إعتقاد يرسخ رسوخ الحياة ، نابع من صدق العقيدة ، و شدة الإيمان ، ألا و هو أن الرب هو من منحه نعيم الدنيا ، و هو من سلبه إياها ، فلماذا يحزن أو يعترض ، بعدما استرد الرب أمانته من عبده .

و سأل الرب أبليس عن سر فشله فى إمالة رأس أيوب .. العبد الصالح ، القانط ، الصابر على إبتلاء الرب له ، فما كان من أبليس إلا أن تعلل أن الرب قد أصابه فيما لا يحزن عليه العبد ، ألا و هى الأرض ، فإن فسدت هذه القطعة عليه باستصلاح آخرى ، فالأرض

متاع و مرتع لبنى البشر من بعد هبوط آدم .
و أهتدت رأس أبليس إلى فكرة نيرة ، و اختيار عصيب لن يحتمله أيوب ، و سيكفر بربهِ ، و يدخل فى زمرة أبليس و رفاقه ، و يصبح تابع له ، يأتمر بأمره ، و هى أن يحرمه الرب من أبناءه الذكور منهم و الإناث ، فهم فلذة كبد المرء منا ، و صلب الرجل ، عندما يفقد أحد منا ولدًا واحدًا له يذهب عقله و يشط ، فما بالكم بأولاده كلهم ، أى بشرٍ هذا الذى يستطيع تحمل هذا الهوان ؟
و أرسل الرب جنده ليقبضوا روح أبناء أيوب ، لتعلو أرواحهم إلى السموات السبع ، و تدفن رممهم فى الأرضين السبع ، و شعر أبليس بأن النصر يطرق بابه ، و إن هذه الصدمة هى بمثابةِ القشة التى ستقسم ظهر البعير ، و تفسح الطريق لأيوب ليدلف لجهنم الحمراء .
و لكن أيوب ، نبى الرب .. نبى مُبتلى ، أودعه الرب الحكمة ، و عصمه من الخطيئةِ ، فما كان من أيوب إلا أن حمد الرب فى ضراءه قبل مسراته ، و هو مؤمن بأن الرب أودعه البنين أمانة بين ترائبه ، و هو الأن يستردها .
و عاد ناقوس الهزيمة يدق طبوله حول رأس أبليس ، الذى تكهن بما ليس له من علم و لو بمقدار ذرة .
و دوى سؤالُ الرب بين قرنيهِ عن سر فشله للمرة الثانية فى استمالةِ

رأس أيوب .. و بحث أبليس عن حجة جديدة فى جعبتهِ يُبرر بها فشله و يتوارى خلفها خزيًا ، و قد تعلل بأن الرب قد منح أيوب من الصحةِ ما خفف عنه وطأة الصدمة ، مُمنيًا نفسه بأن يستطيع أن يولد زوجه من الأبناء ما يسر عينه .

و لكن الرب أقوى من عبثِ الشيطان و تكهنات المردة و الأبالسة ، فسلط دود الأرض أن تجعل من جسد أيوب مثوى و غذاء لها .

و للمرة الثالثة يُراود الأمل أبليس بأن أيوب يتسمر على أبواب الكفر و الصبأ ، فالمصيبة المُبتلى بها هى الصحة ، و هى الثروة التى لا تقدر بمال ، إن ذهبت ذهب معها المرء بلا رجعة ، فهى عملة غير متجددة ، لم يودع الرب نبتة لها فى صلبِ رجل و لا ترائبه ، فبعد أن يوشك أيوب على الزوال ، يتمثل له الشيطان و يعقد معه إتفاق .. يمنحه الصحة مقابل أن يكون فى زمرتهِ .

و أخذ أبليس يتطلع من السماء العلى إلى الأرض ، حيث كان يتلصص على أيوب ، الذى فوجئ بدودِ الأرض يخرج من بين أحشائهِ و خلاياه ، و آخر تمتص من دمهِ و تشتهى لحمه و عصبه ، و آيات الألم تُرسم على وجههِ بريشةِ فنان أبدع فى تجسيم الألم ، الذى أوغل فى قسماتِ وجه أيوب .

و بدأ ابليس يتهيأ للهبوط إلى الأض ليعقد إتفاقه مع أيوب ، و بذلك

ينتصر على خالقهِ ، و لكن الرب عليم بما يدور و يثور فى النفوس ، و ما يجول فى العقول ، و قد أمهل أبليس بعض الوقت ليمنىَّ نفسه بنصر كاذب ، قبل أن يدعوه للأنصات إلى لسان ايوب ، الذى كان يدعو ربه ، قائلاً :

- اللهم لك الحمد أن جعلت منىَّ رزقًا ترتزق به دوابك الضعيفات .

و رأى أبليس أيوب يدعو دود الأرض لتمرح فى جسدهِ ، مُتحاملاً على نفسهِ زوال صحتهِ ، فخر على ركبتيهِ صريعًا و هو يُعلن توبته للرب خالصةً ، و يُعاهده أنه سيكف يده عن كل مؤمن ، و يكتفى بالضعفاء من البشر أصحاب النفوس الهاوية ، المُحبة لمتاع الدنيا .

و لكنه تذكر رفيقته فى تحطيم أمل البشرية فى الخلود فى الجنة ، و سبب هبوط آدم للأرض ، و الفتنة التى تمرح و تختال على البسيطة .. تذكر حواء .. تذكر أنها الأذن التى تصغى لوسواساتهِ دومًا ، و العقل الذى ينصاع لأوامره .

و قرأ الرب ما فى نفس أبليس ، فصب على زوج أيوب الطامة التالية ليختبر بها قوة إيمانها ، و أحقيتها فى مُعاشرة نبى الرب المُختار .. فسلط عليها من الرجال من أشتهوها و أشتهوا جمالها ، و حسن ملامحها ، و أنساقوا خلف جدائل شعرها الصب ، كأنهم النعاج ،

عارضين عليها كنوز الأرض و الجاه و المال ، مُبرزين ما يتمتعون به من صحةٍ أفتقدها زوجها ، و مال و جاه سُلب من زوجها ، و لكنها أبت المال و الجاه ، أبت الرجولة التى كانت كفيلة أن تروى ظمأ ذلك الوحش الرابض داخل جسدها ، و الذى يئس من شدة إحاحه لمنى يسيل بين أهداب جسدها ، و أكتفت بأن تحفظ فرجها لزوجها إن كتب له الشفاء من داءه ، و أن تقتل شهوتها بيديها .

و تتطور الأحداث و المكائد بها ، إلى أن تضحى بتاجها .. تاج المرأة الذى تتوج به ، تتضحى بنصف جمالها ، و قد فقدت جدائل شعرها العاجى ، الذى ُنحر على أيدى بعض نسوة القرية ، لتشترى بها بقائها بجوار زوجها .. نبى الرب المبعث .. و كف المكائد عنها ، التى كادت أن توقعها فى الخطيئةِ ، لولا إيمانها بوجود الرب المطلع عليها ، و إيمانها بأن جنوده من الملائكة ترفرف حولها ، و حول زوجها تحرسهما ، و تظلل عليهما برحمةِ الرب .

و هنا لم يجد الشيطان بدًا من الاستسلام ، بعدما قهرته نعسة زوج أيوب المبتلى .

و أعاد الرب لأيوب أرضه كما كانت جنة تربض على الأرض ، و منح جثث أبناءه الحياة ، و طرد ديدان الأرض من جسده ، و منحه من الصحة بسطة تفوق بسطتها الأولى ، و زاد من جمال زوجه

نعسة ، و ...

-يا ألهيَّ .. إنها الثانية ظهرًا .

و لم أكد ألمح عقرب ساعتيَّ الذهبى يقترب من ذلك النبش المحفور فى قاعها لتعلن إنها الثانية ظهرًا ، حتى أخذتُ أعدو فى الشارع كالمجنون ، أو كمن مسه شررٌ كهربى ، و أنا أعلم أننىَّ سأسمع من الكلماتِ ما تطرب له الآذان بعدما يزبد و يثور صاحب العمل .

العمـل الثامن

كلام فى السياسة



ف

فى ذلك اليوم من شهر سبتمبر عام ألف و تسعمائة و أربعين ، شعرت بأننى فى حاجة للأختلاط بالناس .. أسمع صوتهم ، يتهافت إلى سمعىَ نحيب الأمهات على أزواجهن و ابنائهن ، و قد جذبتهم الحرب العالمية الثانية ، كما يجذب المغناطيس الحديد .

أخذت أسير فى الطرقات و أدهس الممرات بقدمىَ ، لأطالع تلك البنايات المُتهالكة ، المُتصدعة من هول الغارات العسكرية على المدنيين .

و قد وقعت عيناىَ على النساء المُتشحات بالسواد و قد أثقلتهن الأحزان عن السير ، و تلك الفتيات اللواتى يعبرن الأفريز و عيونهن مُشتته هنا و هناك ، و صدورهن متوجسة ، تخشى أن تجد أمامها عسكرى من أحد الجنود الأجنبية ، فتجدهن كالريشة فى مهب الريح لا تطئ أقدامهن أسفلت الطريق حتى يسلمن سيقانهن للريح تنفضهن كما تشاء ، المهم أن يعُدن لديارهن سالمين ، و لم يهتك عرض أحداهن جندىّ مُغتصب ، حلل لنفسهِ الأرض و العرض دون أدنى حق .

و كان هناك بعض الفتية حديثى العمر ، يلهون بين أنقاض المنازل المتهدمة ، يحملون الحجارة على أكتافهم الصغيرة ، و ينقبون

أسفلها ، ربما يجدوا قطعة خبز جافة ملوثة بأديم الجرحى و دماء الأبرياء ، لتشبع ذلك الوحش الرابض فى نفوسهم الصغيرة ، الذى يطلقون عليه الجوع .

كانت الحوانيت و المقاهى ما بين متهدمة و مغلقة .. كانت البلاد قد انهارت تحت وطأة نيران العدو من ألمان و إنجليز .

و ما مصير قدماى الأن .. لقد أرهقهما السير ؟ .. و لن تفلح عودتى لمنزلىّ مرة ثانية و قد أصبحت بمنأى عنه ، و المكان من حولى ، قد حولته القذائف لمكان موحش تحط فيه الغربان و الدواب السامة ، و قد زحفت إلى كل مكان بها لتبث سمها فيه دون حياء .

و لكن ما مصير قدمىّ الأن ؟

على ما أعتقد أننى أسمع صوت بشر يتصايحون على مقربة منىّ ، و لكن أين هم ؟ .. أم إنه آل يزحف على رأسىّ ليصيبينىّ بالوهم ؟..

و لكن ها هو الصوت يتعالى فى أذنىّ مرة ثانية ، ليُجدد الأمل فى نفسىّ أن أجد مكانا سليمًا لم تصبه طلقات الجنود ، لاسترح و تستريح قدمىّ .

و أتبعت الصيحات المتعالية التى أخترقت حجب الفضاء الصامت ، و وجدت نفسىّ أمام مقهى صغير ، كان عبارة عن عشرات الأعواد من الخوص الهش ، قائمة فى الفضاء ، كأنها بوابة الشمس ، تتوسط

الصحراء و كأنها تسخر من الجنود ، الذين هدموا البنايات الضخمة ، ليشردوا آلاف الأسر ، ليؤول أمرهم إلى سكنى العراء ، و هدموا المدارس و المستشفيات ، حتى ينتشر الجهل بين الناس و يستفحل ، و لا يجد من يُقاومه و يردعه ، و يخمده و يطفئ جذوته ، و لكنهم تركوا هذه العشة الصغيرة ، لتكون منارة لنشر دعوة المزاج و الكيف ، من المكيفات و الكافين و ما خفى كان أعظم .

و لعلها سياسة جديدة يفرضها المُستعمر علينا ، حتى ننسى أو بتعبير أدق نتناسى ما يفعله بنا .. لنتناسى صيحات الأطفال الفزعة ، عندما ينهضوا و على وجوههم آيات الرعب ، على آثر قذف مروع يُصيب معاقل نفوسهم .. لنتناسى معالم بلدنا الجميلة ، التى أندثرت تحت جثث الضحايا .

و لا أطيل عليكم .. أقتحمت ذلك المقهى ، لأجد نفسىًّ بين عشرات ، بل مئات من البشر ، ما بين رجال و نساء .. شيوخ و أطفال ، جالس و واقف .. معمم و مطربش .

و بالطبع لم أجد مقعد أجلس عليه لاستريح ، و تبرد نفسى الملتهبة ، التى كادت تحرقنىَّ من هول حرارتها .

و كانت عيون الحضور متعلقة على وجهىّ ، لعلها تتسائل من

أكون ؟ .. و ما أتى بىَّ لهذا المكان الخرب ؟ .. أو هذا ما بدا لىَّ فى بداية الأمر .

و عندما هدأت سريرتىَّ بعض الشئ علمت السبب الذى جعلهم يحملقون فىَّ هكذا ، فقد لاحظت أنهم ما بين عراة و مهلهل الثياب ، و أفضلهم حال يرتدى بنطال و قميص ، و لكن التراب لم يتركها فى حال جيد ، بل عمل على بهتان الألوان بين ذراتهِ البيضاء ، على حين كنت أرتدىَّ حلة فاخرة لم تطئها ذرات التراب ، كأنها تهاب رونقها و نصاعة ألوانها ، و كان رأسىَّ يتدثر بقبعة من الصوف الإنجليزى الباهظ .

عدت للواقع لأنسى ما حل برأسىَّ لبعض الوقت ، و أنا أرى رجلا هرمًا ينهض من مرقده ، و يدعونىَّ لأن أحل محله على مقعده ، و جلست على المقعد فى صمت ، دون أن أهتم بمن تطوع لىَّ بهذا المقعد .. هل كان شابًا أم عجوزًا هرمًا ؟ .. فقدت كانت آلام قدمىَّ تلح علىَّ ألا أرفض دعوة هذا الرجل الكريم ، الذى أحس بأرهاقىَّ و التعب الذى حل بىَّ .

و لكنىَّ لاحظت توتر العيون بشكل ملحوظ و هى تحدق فىَّ ، بعدما جلست محل ذلك الهرم ، و ما زاد عجبىَّ و دهشتىَّ ، أنىَّ أبصرت نادل صغير السن ، يحمل على عاتقه كوبًا من الشاى ، و آخر من

القهوة ، و بجوارهما زجاجة بها مشروب ذى لون وردى ، و أخذ يقترب منىَّ فى خطى متوجسة ، مضطربة ، متقلقلة ، ثم وضعهم جميعًا أمامىَّ ، و فر عائدًا من حيث أتى .

و لم تدم دهشتىَّ طويلاً ، و أنا أحاول أن أندمج فى هذا المُناخ العجيب الذى غلفه الصمت ، حتى الأنفاس المتزاحمة داخل هذه الجدران الهشة أختفى صوتها ، و لم أعد أسمع سوى صوت لهاثىَّ ، و صوت المذياع الذى أخذ يُردد :

- و نجحت القوات البريطانية فى صد هجوم القوات الإيطالية على مصر ، و حاصرتها داخل الصحراء ...

و فجأة صمت المذياع هو الآخر كأنه لاحظ وجودىَّ ، و لم أعد أسمع سوى صوت لهاثىَّ مرة آخرى .

و فجأة .. وجدت الحضور كلهم بلا استثناء يتصايحون فى سعادة ، و أصبح الجالس منهم واقفًا و هو يلوح برايات النصر ، التى تستكين بين أصابعهم فى استسلام ، و من كان واقفًا ،مُتحاملا آلام التصلب كالمسمار أنهار على الأرض و قد تبدلت ملامحه ، لتحل آيات التساؤل على وجهه ، و هو يستفسر عن مصير مصر من هذه الحرب .

و وجدت نفسىَّ أنا الهادئ ، المتصلب ، الصامت ، و هم الثائرون ،

و المتعطشون للكلام و الحركة كأنهم تناسوا وجوديّ الذى أربكهم بادئ الأمر .

و بعد مرور بضعة دقائق و الكل ثائر على وضعهِ الذى كان عليه ، هدأت الأمور و استكانت ، وعادت الأصوات تتعالى كما كنت أسمعها و أنا أسير فى الطريق ، كأنهم أحتوونيّ بينهم ، و أعترفوا بكونيّ واحد منهم .

- و قد دخل القائد الأعلى بولندا و بلجيكا ، و نجح آخيرًا فى إقتحام فرنسا و هولندا ليصبح الغرب ملك يمينه ...

أنطلقت هذه العبارة من المذياع ، لتنظم حركة الحوار بين الأفراد و بعضهم ، و تحول دفة حديثهم إلى بعض المصطلحات السياسية البحتة التى أخترقت أذنيّ لتزرع الشك فى نفسيّ .. هل أنا أجلس بين حثالة متطفلة من بقايا الحرب و مخلفاتها ؟ .. أم أننيّ أجالس بعض الساسة المحنكين فى الأمور العسكرية ؟

الحلفاء .. دول المحور .. الأيدلوجية العسكرية .. وعد بلفور ١٩١٧ مصطلحات عديدة ، أخذت تنهال على سمعيّ ، و بجواريّ دار حديث جانبى بين شيخ لم يتخط عقده السادس بعد ، و آخر لم يتخط عقده الرابع ، و ثالثهما يُقارب عمر الثانى .

القائد الأعلى هذا رجلٌ على حق ، استطاع أن يُحول بلاده من بلد

زراعية ترضخ للاستعمار الخارجى إلى دولة عسكرية من الطراز الأول ، تستعمر جيرانها الضعفاء لتزيد من رقعتها ، لتصبح من القوى العظمى التى تسيطر على العالم .. يا ليتنا نبتلى بقائد مثله .

- و لكننا لسنا بلد عسكرى ، و لا نفكر فى الاستيلاء على البلاد المجاورة لنا ، فنحن نؤمن بحرية الشعوب ، و حقها فى السيادة دون أن نرضخ لحاكم ظالم يتعاون مع العدو لصالحه الخاص و ليس للصالح العام .. صالح الشعب .

- لا تقلق ، سيأتى اليوم الذى نتطهر فيه من كل إنجليزى محتل ، و كل يهودى يدنس أرضنا .

- متى ؟

- لا تتعجل الأمور .. سيأتى ذلك اليوم دون ريب .. اليوم .. غدًا .. لا يهم ، المهم أن يأتى .

- ألم تسمعا ما فعله القائد الأعلى باليهود ؟

- ما فعله القائد الأعلى باليهود ؟!!

و توقفت عند هذا الحد من سماع الحوار الدائر بين هؤلاء الأفراد الثلاثة ، و أنا أتساءل .. هل هؤلاء و أمثالهم يعلمون شيئًا عن سياسة القتال ، و سر نجاح الشعوب ؟ .. و لكن كيف لهم أن يعلموا هذا ، و هم إناس يعيشون بالفطرة ، و قد أغرقتهم مشاكل الحياة حتى آذانهم ،

فلم يقووا على أن يبصروا لما حولهم ؟

- لقد جمعهم كالدجاج و أحرقهم جميعًا ، كما تشوى الشاة على نار هادئة .

- هل حرقهم و هم أحياء ؟

- نعم .. ألم تسمع عن الهولوكوست ؟

- ألم يتعذب لصياحهم ، و يلين قلبه لاستجداءاتهم المتوسلة إياه أن يرحمهم ؟

- و لماذا يضعف أو يلين قلبه لهؤلاء الكفرة ، الملاعين ، لقد بدوا كالسوس الذى ينخر فى بنيةِ العالم ، و ينهلون من أقتصاد الدول الكبرى ليخدموا أوهامهم الباطلة .

- أنسيتما فلسطين و وعد وزير الخارجية الإنجليزى بلفور ؟ .. أنسيتما أطفال العرب التى تزهق أرواحهم يوميًا تحت وطأة نيرانهم القاتلة ، لقد بدوا كالغول الذى يتغذى على أرواح الأطفال الأبرياء ، و شرف النساء المنتهك .

- لعل العالم كله ينكل بهم و يصفيهم عن بكرة أبيهم .. ذلك الجنس النجس .

- و لكن القائد الأعلى لم يكتف بحرقهم فقط ، بل وضعهم فى قوالب ثلجية لتتصلب شرايينهم ، و تتوقف قلوبهم العفنة ، التى كان

يهوى القائد الأعلى نزعها من صدورهم ، و لم يكتف بهذا فحسب ، بل عَبد الطرق من شحمهم الذى نتج من حرق أجسادهم ، و قد تعقبهم فى كل ركن من العالم ، حتى أصبحوا أقلية مشتتة بين دول العالم .

- و يا ترى ما هو سر قوة القائد الأعلى فى إعتقادكما ؟

- أنا أعتقد أن سر عظمته و قوته فى شاربه القصير .

ضحك الحضور فى تهكم ، و لم استطع أن أوعد سخريتىَ فى نفسىَ ، وأنا أسمع هذه الخزعبلات التى مازال لها وجود فى عصرنا هذا .

- شاربه ؟! .. و ما السبب فى إعتقادك أن شاربه هو سر عظمته ؟

- لا أعلم .. ربما لشكله الغريب .. لا أعلم ، و لكنىَ أعتقد أن سر عظمته فى شاربهِ القصير ، كما كان سر قوة شمشون فى شعره .

و عدنا نضحك فى تهكم مرة ثانية ، على حين قال أحدهم :

- أنا أعتقد أن العقل له دور هام فى حياة هذا الرجل ، و دليلىَ على ذلك ، تلك الحركة السياسية التى دعى إليها لتسود مبادئها العالم أجمع .

- و كذلك وجود الرجال المخلصيين له فى كل مكان ، مثل ثعلب الصحراء روميل .

- و لكن هل تعتقد أنه سينتصر فى العلمين ، و يسيطر على

العالم ، ليصبح هو سيد الأرض ؟

ـ لا أظن ذلك ، لابد له من كبوة تعرقل مجده وانتصاراته مهما تعاظمت ، فسياسة الطبيعة التفرد بذاتية الحكم ، و لو نجح من سبقوه من هولاكو و جنكيز خان و غيرهم لكان له أن يظن هذا فى نفسهِ .

نعم .. صدق الرجل ، لا يمكن لفرد أو أقلية أن تسود العالم ، لتصبح هى السيد المنوط بشئون الأرض ، فهذا مُخالف لميزان الكون الذى ينبذ الحكم .

و بعد جرعة من هذا الحوار السياسى ، نهضت لاستكمل رحلتىّ ، لأتطلع فيما أحدثته الحروب و ما خلفته من دمار .

العمــل التاسع

فرسان أضاعوا الأندلس



أخذت خطوات شخص ما تدب على الأرض فى ثقةٍ و قوة لتسحق ذرات التراب أسفل ذلك الحذاء الجلدى ذو الرقبة الجلدية الطويلة التى تعانق ساق صاحب هذه القدم الضخمة ، و قد كان شاب فاره الطول ، قوى البنيان ، له عينان زرقاوتين و شعر ذهبى طويل بعض الشئ ، و قد داعبته الريح يمينا و يسارًا ، فبدى كفروع الشجرة المتناثرة ، و كان يعلو وجهه الذى لم يتعد عمره أواخر عقده الثالث إمارات الغبطةِ و السعادة ، و هو يُحدق فى أوجه المارة ، لترشق نظراته كالسهم الصائب فيهم ، و هو يُردد فى إعجاب :

- ما أجمل نساء الأندلس ! .. لقد فاق جمالهن جمال فتيات الغرب كلهن .

و أخذت شفتاه تتلوى كالثعبان ، فتارة تنضم على بعضها البعض لتمنح فاه الشاب حجم صغير مكتسب ، و تارة أخرى تنفرج لتكسبه فاهًا عريضًا كما فاه الوحش الجائع ، كأنه يُمنى نفسه بتذوق الفاكهة من شفاه الفتيات المارة ، لعله يجد فيها مذاق يُخالف مذاق الشفاة التى قطف ثمارها قبل ذلك .

و أخذت قدم الشاب تنتقل من بقعةٍ إلى أخرى ، و من أرض صخرية إلى أرض رملية حتى غاصت فى أرض طينية قد لوثها اللون

اللون الأخضر ، الذى كسى الأعشاب بثياب البهجة و الوقار .
و زاغت عينا الشاب و تاهت وسط البقعة الخضراء ، التى تمتد إلى الأفق و قد عجزت العين عن حصد آخرها ، و هو يتمتم كالمأخوذ ، الذى سلبت منه الإرادة و الوعى :

-ما أبدع هذه البلاد ! .. و ما أروع هذه البساتين الخضراء !
و مد ذراعه إلى أقرب فرع شجرة ، و قبض على ثمرة ما ، ثم أفقدها الحياة ، و انتشلها من عزوتها لتستقر بين راحتهِ ، و هى تحاول أن تتوارى من نظراته الحاسدة ، المتلهفة لتمزيقها و تقطيعها أربًا أربًا لتستقر فى معدتهِ ، لتصبح بعد حين جيفة قذرة مصيرها الهلاك .

- ما أطعم هذه الفاكهة ! .. حقا هذه البلاد هى جنة الرب على الأرض .. ما أروع الحياة بين جنبات هذا البلد الأمين .. المُسالم .. الهواء العليل يُحيط بك إينما تذهب ، و الماء الرقراق يُنعش جوفك و يوأد ظمأك ، ومن حولك البساتين و الأشجار تقطف منها ما شئت من الثمار ، و ...

أبتلع الشاب عبارته فجأة ، و قد تجهم وجهه و هو يُشخص بصره ليخترق به حجب المسافة لتعكس له صورة قصر منيف ، عملاق يربض بين السهول و الوديان ، كأنه أبا الهول رابض لحراستها من أى قدم تدنسها .

على حين عبأ الشاب صدره بالهواء ، و هو يرخى جفنه فى تراخى و كسل ، و هو يتمتم فى سعادة و تمنى :

- قصر الحمراء .. ما أروعك و ما أبدعك ! .. أقسم لك و هذه الطبيعة الخلابة تشهد على قسمىَ هذا إنك لن تدوم للعرب ، فأنت قلعة يتحصن بها الأسياد و ملوك الأرض و ليس البرابرة و الهمج .. ما أبدع تصميمك ! .. و ما أمهر تلك اليد التى ...

اضطربت نبرات صوت الشاب قبل أن تفقد الحياة و تقبر داخل فاهه ، على آثر صوت غريب أخذ يُداعب آذنيه فى وهن و ضعف ، فأخذ الفتى يتتبع الصوت بخطى حذرة ، و يد تتأهب للقبض على السيف القابع داخل غمده المعتقل حول خصر سيده ، و قد بدأ الصوت يتضح رويدًا .. رويدًا .

- إنه صوت نحيب .

تفوه الشاب بهذه العبارة ، حينما ميزت أذناه ذلك الصوت الذى أحتلها دون رغبة منها ، و قد تخلى هذا الأول عن حذره بعض الشئ ، و لكنه لم يتخلى عنه تمامًا ، وهو يتقدم صوب شجرة عملاقة كفيلة بأن تخفى خلفها كتيبة جنود من أربعة رجال ، و قد استل الشاب سيفه من غمده خشية أن يكون شرك منصوب له ، و أنقض على من خلف الشجرة ، و هو يُشهر سيفه ، و ...

- أهو أنت ؟

وجد الشاب نفسه أمام فتى صغير السن لم يتعد الخامسة عشر بعد ، و قد تلوث وجهه بذراتٍ ترابية قد أختلطت بماء عينيهِ ، لتطبع الأوساخ الطينية على وجنتيهِ و جبينه ، و لم تكن ملابسه الرثة أفضل حال من وجههِ ، فقد تحول لونها الأصفر الهادئ إلى لون يُحاكى لون التربة التى يجلس عليها .

أنتفضت فرائس الفتى الصغير ، و قد كف عن النواح ، عندما وجد ذلك الغريب يتسمر أمامه و يُشهر سيفه فى وجههِ الذى كان يبعد عن ذبابة السيف بضعة سنتيمترات ، و لكن سرعان ما تغلب الفتى على دهشتهِ ، و قد تحكم فى خلجاتهِ ، و قبض على جذع شجرة رفيع ، كان يرقد بجانبهِ فى استسلام ، بعدما نبذته الشجرة التى كان يحتل مكانا فيها من قبل ، و نهض الفتى الصغير من مرقده ، و هو يُشهر عصاه للتصدى لسيف الغريب ، الذى أقتحم خلوته دون استئذان ، و قد ضرب الفتى سيف الغريب بعصاه و هو يسأله فى دهشةٍ قد مزجت بنبرة قوية :

- من أنت ؟

خرج الشاب من شروده ، و هو يُدافع عن نفسهِ ضد عصى الفتى الصغير ، و قد تناسى ذلك السيف المعتقل فى كفهِ ، و هو يُجيب فى

دهشة من مهارة الصبى فى القتال ، حتى بدا له أن عصى الفتى الضعيفة التى لا تقوى حتى على هش الأغنام ، قد صارت سيفا يتصدى به لضربات سيفه :

- عابر سبيل .

- و ما لعابر السبيل أن يقتحم خلوتىَّ و يعتدى علىَّ و أنا أعزل

تسمر الشاب فى مكانهِ ، و هو يُحدق فى سيفهِ الذى تجمد فى الهواء ، و ذلك الفتى المُتأهب للدفاع عن نفسه شاهرًا عصاه ، فأيقن إنه فى حالة صراع مع هذا الآخير ، و قد أقحم نفسه فيها دون أن يعلم ، و ما كان للفتى إلا أن يُدافع عن نفسهِ مُستخدمًا هذا الفرع العقيم ، فشعر الشاب بالخجل من كونهِ يُبارز فتًا صغيرًا ، بعدما كان يُصارع الفرسان و الجبابرة و يخوض المعارك و يُطوعها لصالحهِ و يصوغها كيفما يشاء كأى قائد عظيم ، فحمل سيفه ليعود إلى غمده ، و قد شابه الخجل ، و هو يُردد :

- أنا لم أقصد الإعتداء عليك يا بنىَّ ، و لكنىَّ حسبت أن هناك شرك قد نصبه بعض اللصوص لاصطيادىَّ و النيل منىَّ .. و كيف لىَّ أن أقاتل صبيًا صغيرًا لا يفقه فى فنون القتال مثقال ذرة ؟ .. هذا ليس من شيم الفرسان .

- حسبك يا سيدىَّ ، فأنت تطئ على أرض فتيانها فرسان

يُجيدون القتال و الكر و الفر و هم فى المهاد .. أنت على أرض عربية تعرف للسيف مذاق و للقتال ألوان .

-حسبك يا صغيرىّ .. فأنا لم أقصد كل هذا .. كل ما هنالك أننىّ أردت أن أوضح لك ما قد حملنىّ على مُنازلتك يا صغيرىّ .

-أعلم .. كما أنىّ قصدت أن أوضح لك على أى أرض تصلب عودك و تطئ قدمك .

قال الفتى الصغير هذه العبارة ، تاركا الفارس فى لجةٍ من الحيرة ، و قد جلس فى موضعهِ الأول أسفل الشجرة ، حيث كسى الحزن وجهه و أحتل الأسى كل خلجة من خلجاتهِ ، على حين أخذ الفارس يعقل كلمات الفتى فى تعجب و دهشة .

إن الفتى يملك من المهارة ما يُعادل مهارة فارس ولد بين وطيس الحروب ، و تعلم أن يقبض على السيف منذ يومه الأول فى هذه الدنيا ، و له لسان فصيح لا يعرض إلا على الفقهاء و الحكماء .

- عجبًا لهذه البلاد .. كل ما فيها عجيب و غريب .

-ماذا تقول يا سيدىّ ؟

-كنت أتساءل عن سبب نواحك و بكاءك الشديد ؟

-و هل معرفة سبب بكائىّ تعنى لك شيئا هامًا ؟

- لا .. و لكنه الفضول .

جلس الفارس بجوار الفتى الصغير أسفل الشجرة الضخمة ، التى دفعت عنهما قيظ الشمس ، و قد صنعت لكلا منهما ظلا ضخم أفترش الأرض فى رعونةٍ ، و هو يقول ليستحث الفتى على الحديث :

- هلم أيها الصغير .. ألقى بما فى جوفك .

أخذ الصغير يُحدق فى الأرض بعين زجاجية ، لا تعرف للعشب لون و لا كيان ، و ظل صمته يُخيم على مجلسهما بضعة دقائق لم تتعد أصابع اليد الواحدة ، ثم قطع صمته و هو يقول فى حزن و أسى ، مُحاولا كبت دموعهِ و قهرها فى منبعها ، حفاظا على كيانهِ أمام الغريب .

- اليوم يعد من أتعس أيام حياتىّ .. ففى الصباح فى مجلس تحفيظ القرآن و تعليم السنة ، تلعثم لسانىّ و خذلنىّ فى تسميع جزء من القرآن كنت أحفظه عن ظهر قلب ، على حين أجاد الآخرون تسميع ما حفظوا و كنت أنا الصابئ عنهم .

- ربما كنت مُتهيب المجلس ، فلمجلس العلم هيبته و كينونته .

- لا .. لم أكن أتهيب المجلس ، فلقد ألقيت ما حفظته من القرآن دون أن يتلعثم لسانىّ ، أو يضطرب أو يتوقف ، و لكن عندما بدأت فى تسميع الجزء الآخير ، وجدت نفسىّ تائهًا ، شاردًا عن معانى الآيات .

أبتسم الفارس إبتسامة صفراء أخفت خلفها الحنق و الغضب ، و قد ظن أن هناك أمرًا جل شأنه قد عكر صفو هذا الصبى و جعله ينوح و يبكى على هذا النحو الذى شاهده عليه .

- أهذا كل شئ ؟ .. هون على نفسك يا صغيرىَّ .

- لا ليس هذا كل ما فى الأمر يا سيدىَّ .. فعند الظهيرة كان موعد التدريب على القتال و فنون الكر و الفر .

- و ماذا حدث ؟

- لقد أصبت تفاحتين من ثلاثة تفاحات ، و قد شرد السهم منىَّ فى الضربة الثالثة .

شعر الفارس بمرارة فى حلقهِ ، و هو يُشاهد و يسمع كلمات الفتى الصغير ، و قد أنفطر قلبه حزنا لأنه تلعثم فى تسميع بعض الآيات ، و قد أخطئ سهمه إصابة الهدف ، فقال للصبى مهونا عليه ببضع كلمات ، كان الغرض منها فض المجلس الذى جمعهما :

- هون على نفسك يا صغيرىَّ ، فنحن الفرسان نخطئ و لا نصيب كبد الحقيقة دائمًا .

- ولكن أمراؤنا لا يسمحون لنا بالخطأ و لا يرتضون بغير النجاح بديل .

- أجتهد يا صغيرىَّ لتصل لمبلغ أمانيك .. و الأن حان موعد

رحيلىَّ للحاق بقافلتىَّ التى ستقلنىَّ إلى موطنىَّ .. وداعًا .
قال الفارس هذه العبارة و هو يهم بالنهوض ، و قد زينت تلك الإبتسامة الصفراء وجهه ، كما أن الصغير أخذ يلوح بيده مودعًا ذلك الغريب الذى أخذ يتباعد و يتباعد ، حتى أختفى عن نظر الفتى ...

على حين بدت خطى الفارس ثقيلة ، متحجرة ، و قد تجهم وجهه و تبدلت خلجاته المتوردة بخلجاتٍ من الضيق و الغضب و هو يُخاطب نفسه بنبراتٍ مُتوجسة و مُتسائلة :

- إذا كان هذا هو حال الصبى ، فما بال رجال هذه البلد و فرسانها ، لابد أن أمراء العرب صنعوا منهم أسودًا هصورة ، قادرة على الفتك بنا أو بأى دولة آخرى تفكر فى غزو الأندلس .. لابد أن يتوقف الأمراء عن تعبئة الجيش و وضع الخطط و الدراسات .. لابد ثم أعقب عبارته المُسهبة بأن أخرج قرطاسًا من جلد الحيوانات ، و قلم من البوصِ و دواية حبر من جعبةٍ صغيرة ، كانت تتمنطق على خاصره ، و يخط عليها ما يفيد أن غزو الأندلس فى الوقتِ الراهن يعد دربًا من دروبِ الجنون ، فأطفالها و نسائها قادرون على الفتكِ بأى دخيل مهما كانت قوته فما بالنا برجالها و فرسانها ، و لا بد من وضع خطة لتدمير شباب هذا البلد قبل أن نضع خطة لسحق جيوشها

، فالشباب هم حاضر البلاد و غدها المشرق و قوتها الضاربة ، و إذا استطعنا هدم هذه القوة ، فستخر الأندلس لتسقط بين البنان صاغرة ، و تكون الحمراء و قصر الحمراء خاضع لنا ...

أنتهى الفارس من خط رسالته ثم طواها ، و ألقى بها فى جعبتهِ مرة ثانية ، و هو يُعاود السير فى طريقه مُرددًا :

-ماذا تضمرين فى جوفك أيتها البلاد الساحرة ؟

* * *

و داخل أحد القصور الملكية التى تقبع على أرض غربية لا تعرف للضاض معنى ، جلس شخص مهيب الطلعة ، يعلو رأسه تاج ذهبى مرصع بالعديد من الأحجار الكريمة ذات اللون الأبيض الساحر ، و قد أحاطت بالتاج كالسوار الذى يُحيط بالمعصم ، لتضفى عليه جمالا و بريقا خاصًا مع أنعكاس أضواء عشرات الشموع ، التى حولت ليل القصر إلى نهار قد أفتقد الشمس ، فبدى التاج كأنه شمسٌ صغيرة تضئ أعلى هذا الرأس ، الذى يبدو عليه أنه رأس الملك .. و قد أصطف على يمينه و على يساره بعض من الرجال ، يبدو الشأن العظيم على وجوههم ، و قد بدت الهمهمات تجد طريقها بين أفواه الرجال ، كأنها اللهب يشب فى جذع شجرة جاف .. و قد وجد الملك أن الهمس تحول إلى همهمات خافتة ، و تلك الهمهمات الخافتة

صارت عبارات غاضبة ، و لاح له أن هذه العبارات الغاضبة تؤول لتتحول إلى صراع ، فصاح بصوتٍ ممتلئ ، أجش :

- صمتًا أيها الأمراء .

و مع أختفاء آخر حروف عبارة الملك انطمست عبارات الأمراء فى حلوقهم ، ليسود الصمت الغرفة ، كأن حط الطير على رؤوس الجميع ، على حين أخذت النظرات تجول بين الرجال و بعضهم البعض لتمسح على الوجوه ، حتى قطع الملك الصمت و توجس النظرات و اضطراب الشفاة ، ليقول بصوتٍ هادئ بعض الشئ ، لعله كان الهدوء الذى يسبق العاصفة :

- لقد أمرت بجمعكم اليوم على غير العادة لأعلن لكم أن زحفنا على الأندلس سوف يتوقف ربما لبضعةِ شهور ، قد تمتد بنا لبضعة سنوات لا يعلم مداها إلا الرب .

علت همهمات الرجال مرة ثانية ، و لكنها كانت هذه المرة كانت حادة ، رافضة لما سمعت الآذان ، و ترجمته العقول ، فبدا الأمراء كقطيع من الأسود الثائرة على زعيمها ، الذى حرمهم من إفتراس غزال وحيد ، شريد ، و استطرد الملك عبارته دون أن يُعير لهمجية الأمراء أدنى أهمية و هو يقول :

- و هذا القرار قد بنيته على رسالةٍ من كبير عيوننا بالأندلس .

ثم أشار بسبباته لأحد خدمه الذى تسمر بجواره ، و سرعان ما فض الخادم صحيفة جلدية كانت قد طويت بين أصابعه ، و أخذ يُداعب بصره بالمرور على كلماتها ، و هو يُردد فاضحًا فحوى الرسالة :

-من كبير عيونكم بالأندلس إلى الملك العظيم .. أوافيكم بآخر ما وصلت له جهودنا فى هذه البقعة من الأرض ، التى كتب الرب أن تكون من نصيبنا .. أما بعد يا سيدىّ الملك ، فاليوم قد صادفت ...

و أخذت الكلمات تنهال من فيه القارئ كأنها قطرات الماء ، التى تتساقط من شلال جارف لتقص قصة ذلك الصبى الذى واجهه الفارس ، و قد دافع عن نفسه بفرع ضعيف من شجرة قد هرمت ، و قد قاربت المنية أن تصيبها لتتساوى بالأرض ، و كيف لهذا الفتى أن استطاع أن يجعل من فرع الشجرة الضعيف سيفًا يدرأ عنه ضربات الفارس ، الذى جبن سيفه و تخاذل أمام ضربات الصبى الماهرة ، و كيف أفضى له الصبى عن سر بكاؤه ، مما أتضح للفارس أن العرب قد زرعوا فنون القتال و تعاليم دينهم فى نفوس الأطفال منذ ولادتهم ، فبدلاً من أن يتفوه الطفل بلفظة أبىّ و أمىّ ، يقول أين سيفىّ و قرآنىّ .. هذا هو حال فتيانهم ، فما بالنا بفرسانهم .-

لذلك يا سيدىّ أقترح أن نؤجل حشد الجيوش بعضًا من الوقت ، على أن نتوجه لهدم تلك القوة الرادعة ، التى يُطلقون عليها شباب العرب ،

على أن نتوجه لهدم قيمهم ، و زعزعة نفوسهم تجاه دينهم .

و عاد الصمت ليُخيم على المجلس للمرة الثانية ، بعدما انتهى التابع من سرد ما لديه من كلمات طُبعت بخط راسلها على صحيفةِ الجلد ، و لكن كان الصمت هذه المرة يُشبه صمت القبور .. صمتٌ ثقيل ، خدر العقول ، و أرهق النفوس ، حتى قطعه أحد الأمراء و هو يصيحُ كمن وجد تفسيرًا لخطأ علمى جثيم يُهدد العالم بالفناء .

- و من أدرانا أن كبير عيوننا فى الأندلس صادق فيما يقول و لم يُبالغ فى قولهِ .

و سرعان ما استطرد آخر ، و هو يكتسب ثقته من الشخص الذى تحدث قبله :

- نعم .. إنه بالطبع مُبالغ فى وصفهِ لهذا الفتى ، و يكسى العرب صفاتًا أسطورية تثبط من عزيمتنا .

و قال ثالث فى حماسةٍ شديدة :

- لقد كشفَ هذا الجاسوس عن نفسهِ .. إنه يعمل لحساب العرب ضدنا .

و قال رابع و هو يُومأ برأسهِ مُصدقًا على ما قاله من سبقه :

- لقد أرسلناه ليتجسس على العرب فى الأندلس و يكون عينا لنا هناك ، و لكن يبدو أن العرب جعلوه جاسوسًا علينا .

هم خامس أن يتفوه بعبارةٍ ما لولا أن قاطعه الملك ، و هو يقول فى خيبةِ أمل ، و قد لوى شفتيه فى إزدراء مما سمع :

- هذا الذى تتهموه بالخيانة هو أخلص رجالنا و عيوننا فى الخارج ، و بمعلوماتٍ مثل هذه المعلومات التى يُرسلها من الأندلس ، نجحنا فى الاستيلاء على مدن عدة ، و حطمنا شعوب عدة ، و قهرنا ملوك و أباطرة يدعون أنهم أشاوس مغاوير .. و مع هذا لقد تأكدت من صحةِ هذه الرسالة ، و طلبت من عيوننا فى الأندلس أن يصدقونىّ الأمر فيما قرأتم .

صمت الملك بغتة ليبتلع لعابه ، لعله يُرطب هذا الحلق الذى جف من هول ما يرى ، على حين تساءلت عيون الأمراء المتلهفة عن نتيجة ما أرسله أتباع الملك ، و قد قرأ الملك هذه اللهفة فى العيون ، ليُجيب على تساؤلاتها ، قائلاً :

- و قد أكدت العيون صدق كلام كبيرهم .

تعالت الزفرات من صدور الأمراء و تراخت عضلات أجسادهم لتملأ المقاعد التى يجلسون عليها ، على حين قال أحدهم و اليأس يُشبع نبرات صوته :

- و كيف لنا أن نتغلب على هذه المحنة ؟

- أتسألنىّ أيها الأمير عن كيفية مُواجهة هذه المحنة ؟ .. إذا

لماذا جمعتكم هنا .. لنتسامر ؟ .. على كل واحد منكم أن يعقل الأمر في رأسهِ العفن ، و يوضح ليَّ كيف نوجه جهودنا نحو هدم قوة الشباب ، و أن نزعزع إيمانهم بكتابهم السماوى ؟

أخذت العقول تبحث عن حلول لهذه النكبة التى حلت على أصحاب العقول التى ظلت لسنوات خاملة ، لا تعرف للتفكير معنى ، و لا تعترف بوجوده ، كما تعطشت الألسنة للبحث عن كلمة ترطب بها جوفها ، كما أن الملك أخذ يرقب الأمراء فى ترقب ، و يتفحص وجوههم ، و هو يندب حظه العاثر ، الذى أوقعه فى مثل هؤلاء الرجال المدعون للنبل و العلم ، و قد طال انتظار الملك ، و أخذت الساعة الرملية تسكب ما فى جعبتها من رمال ، و قد ضاق الملك ذرعًا ، فأخذ يصيح فى قوة :

- أين عقولكم يا أمراء مملكتيَّ ؟ .. أذهب بها الطير ؟ .. أهذه هى العقول التى ستتصدى للعرب .. أجيبوا ؟

قال أحد الأمراء بلسان متلعثم ، أرهبه غضب ملكه و هو يقول :

- لا .. لا يا سيديَّ .. فعقولنا حاضرة .. فى خدمةِ .. مولايَّ .

- و أين هى يا أمير ؟ .. أسدى بأقتراحك إذن .

- من ؟ .. أنا ؟

- نعم .. أنت أيها الأمير .

- أنا ارى يا سيدىَّ أن نحشد جيشًا قوامه أربعة أضعاف قوام جيش العرب و نزوده بالعدة و العتاد .. و كما يقول المثل الهجوم خير وسيلة للدفاع .. و مهما كانت قوة فتيانهم ...

صمت الأمير بغتة و هو يتطلع بعيون خجلى إلى الملك ، الذى أراح رأسه على كفهِ ، الذى صلب على مسندِ مقعده ، و هو يصغى لمُهاترات الأمير ، الذى لم يستطع أن يقنع نفسه بما يقول ، فلاذ بالصمتِ الذى سرعان ما غلف المجلس كالوباء ، و هنـا بلـغ غضب الملك أشده ، و هو يصيح فى غضبٍ كفيل بأشعال مملكته و تدميرها :

- هل أنتم رجال هذه المملكة العظيمة ؟ .. لقد أمرت بعزلكم من مناصبكم إن لم تجدوا حلاً لهذه المشكلة .

- هل تسمح لىَّ بالحديث يا مولاىَّ الملك ؟

قال العبارة الآخيرة شاب وسيم الملامح ، طويل القامة ، فخم الثياب ، يبدو عليه إنه أمير وله شأن عظيم ، و سرعان ما توجهت عينا الملك و كذلك عيون الأمراء ليتطلعوا إلى الوافد عليهم ، و عندما ابصروا الوافد و عرفوا كنيته تعالت الهتافات باسمه ، على حين قال الملك مُتسائلاً :

- أين كنت يا أمير ماكسيموس ؟ .. لماذا تأخرت عن مجلسنا ؟

- إنها شئون أمارتيّ يا مولايّ الملك .

أشار الملك إلى مقعدٍ خالٍ يبدو إنه يخص ذلك الأمير الوافد ، الذى سار بخطى واثقة ، ثقيلة نحو مقعده ، الذى أفترشه فى ثقةٍ ، كأنه يعلن بأنه جدير بهذا المقعد و منصبه كأمير ، بل أنه يستحق ما هو أرفع من منصبهِ هذا ، على حين تساءل الملك بشغفٍ قائلاً فى إيجاز :

- ماذا لديك إيها الأمير ؟

- أنا أملك حلاً مُناسبًا لهذه المُعضلة .

- آية معضلة إيها الأمير ؟ .. أهناك مُعضلة آخرى ُتهدد مملكتيّ ؟

أبتسم الأمير و هو يلوح برأسهِ يمينا و يسارًا لينفى ما رمى له الملك .

- لا يا مولايّ ، أنا لم أقصد تأخر حشد الجيوش لغزو الأندلس و الاستيلاء عليها و انتزاعها من أيدى العرب .. هؤلاء البرابرة .

علا حاجبا الملك فى دهشةٍ و قد فغر فاهه ، و لكن سرعان ما تغلب على دهشتهِ و قد استعاد سحنته الأولى ، و هو يقول مُحذرًا ، موجهًا حديثه للأمير الوافد ، قائلاً :

- لقد ضقت ذرعًا بتفاهاتِ الأمراء من قبل ، و لستُ على

استعداد لسماع المزيد من سخافاتكم .. لذلك إن كان لديك رأى جيد يصلح لحل هذه المُعضلة كما تقول فشنف آذاننا به و ستجد منا مكافأة سخية ، أما إذا تفوهت ببعض الإرهاصات الواهية التى لا تجدى و لا تنفع سوى كونها تثير غضبنا ، فلن تنال منا سوى ...

ثم أعقب عبارته بأن أشار نحو رقبته ليمنح الأمير إيحاءً بأن جزاءه الموت إذا قال ما لم يعجب الملك ، على حين قال الأمير فى تحدٍ ، و قد علت الإبتسامة وجهه ، و هو يقول :

-و أنا قبلت يا مولاىّ .

-قبلت ! .. قبلت ماذا أيها الأمير ؟ .. هل قبلت الصمت لتنقذ حياتك ؟

-بل قبلت الحديث يا مولاىّ .

تعالت عبارة واحدة فى أجواء المجلس ، تفوه بها الأمراء مُجتمعين دون إرادة منهم ، ليُعبروا عن دهشتهم و استنكارهم لما سيُقبل عليه الأمير .

-ماذا ؟

-أنت تعلم يا مولاىّ أن الشباب هم حاضرنا اليوم ، و مستقبلنا فى الغد ، لذلك نسعى و تسعى سائر الشعوب لمنح الشباب القوة منذ فتوتهم المبكرة لنمنحهم القوة فى غدهم ، ليعملوا على الدفاع عن

بلادهم و شعوبهم ، و هذا ما أقترفته أيدى العرب فى الأندلس .

- و ما معنى هذا الحديث أيها الأمير ؟

- معنى هذا أن أى مُستعمر مثلنا يُريد أن يستولى على بلدٍ كالأندلس يجب أن يسلك طريقين لاثالث لهما .

- أولهما أيها الأمير .

- استخدام القوة و السلاح و حشد الجيوش حيث يكون السيف هو المتحدث الجيد عن صاحبهِ .

قال أحد الأمراء :

- و هذا ما رمينا له ، و لكن مولاىَّ الملك حذرنا منه ، بناءًا على رسالةٍ ...

- و لكن هذه الطريقة لا تصلح إلا إذا كان البلد المُستعمر ضعيف منذ مهده ، رجاله كنسائه ، لا يقووا على حمل السلاح للدفاع عن أولادهم لا عن بلادهم ، و هذا ما أتبعه العرب عند دخولهم الأندلس منذ عشرات الأعوام ، و لكننا لا نستطيع استخدام هذه الطريقة ضد العرب ...

قاطعه أحد الأمراء و هو يقول فى استنكار :

- لماذا أيها الأمير ؟ .. أنهم برابرة لا ...

- هم برابرة و همجيون و لكنهم أقوياء ، يملكون السلاح الذى

سيتصدى لسيوفنا و يقهرها .

قطع الملك صمته الذى صبغ فاهه به ليقول فى إيجاز ، بعدما وجد كلام الأمير طريقه إلى عقلهِ ، الذى تخدر من جراء حكمة و روية الأول :

-معقول .. و ماهى الطريقة الثانية أيها الأمير لغزو الأندلس ؟

- إفساد عقول شبابهم .

-كيف ؟

- التلاعب بغرائزهم .

هتف الجالسون فى صوتٍ واحد ، لم يحمل فى طياتهِ سوى الاستنكار و الشك فى قدرة آذانهم على سماع ما تفوه به الأمير :

-ماذا ؟

تنفس الأمير فى قوةٍ ليملأ صدره بعبير النصر من كونهِ استطاع أن ينفذ لعقول الجميع ليثبت أنه الأفضل و سيظل الأفضل ، و قد قال و هو يضغط على حروف كلماتهِ فى قوةٍ ليُبرز معانيها :

- التلاعب بغرائز الشباب لهدم قواهم و بالتالى هدم قوى العرب .

قال الملك :

- ماذا تقصد أيها الأمير ؟ .. ألقى بما فى جعبتك دون أن

تتلاعب بنا .

- العفو يا مولاىَ الملك .. أنا لم أقصد ، بل و لم أفكر فى إثارة أعصابكم بتاتًا .

- حسنًا .. هات ما لديك .

- كلنا يعلم يا سادة تلك الأسطورة القديمة التى تجوب أرجاء بلادنا منذ مئات السنين ألا و هى أن المرأة صنيعة الشيطان ، و قد كوتها هذا الآخير من ضلع سيد الأولين ، الذى ينحدر الرجال من صلبهِ ، و قد كساها من صفاتهِ ما يجعلها أداة لإثارة و إغواء الرجل ، فقد منحها الجسد الممشوق ، و الكسم العاجى ، و تلك العيون الساحرة ، الصافية كالبللور ، و تلك الخيوط الحريرية ، التى تصنع تاجًا مختلف ألوانه ، فتارة نجده أسود بسواد الليل ، و تارة آخرى نجده كجدائل الذهب يُزين هامتها ، و ما أبدع شفتا المرأة ، كأنها قطعتان من الكرز الأحمر ، و ما أبدع صوتها .. نغمات تثير مشاعر الرجل و تتلاعب بعواطفه .. خلاصة القول ، كل ما فى المرأة كفيل بهدم عرش الرجل و غرسه فى وحل النجاسة و الوهن بدأ الغباء يفرش ظلاله على عقول الجالسين ، و كأنهم يستمعون لعراف هندى يدلى عليهم بعض الطلاسم ، التى لا يعرف سرها سواه ، على حين قال الملك مُعبرًا عن جهلهِ دون حياء :

- هل شاركتنا مجلسنا لتتغزل فى مفاتن المرأة و محاسنها و كيف تستطيع أن تغوى الرجل أيها الأمير ؟ .. هل تسخر من ذاتنا الملكية ؟

- العفو .. العفو يا مولاىَ الملك .. أنا لا أطلب من سموك سوى التريث و التمهل و الإصغاء لما أقول .

أشرأب الملك برأسهِ إلى الأمام و هو يشحذ حواسه ، للإصغاء لعبارات الأمير ، الذى استطرد قوله :

- أنا أرمى يا مولاىَ إلى إرسال جيش قوامه خمسة آلاف امرأة .

- ماذا ؟ .. خمسة آلاف امرأة .

- هل أصبحت النساء هن من يحمين الديار أيها الأمير ؟

- لابد أن الأمير فقد صوابه ؟

- مهلاً أيها الأمراء .. هؤلاء النسوة لن يكن نساء عاديات ، و لن يكن مُحاربات ، بل سيكن مومسات ، كل همهن هو إفساد عقول شباب العرب فى الأندلس ، و التلاعب بغرائزهم ، حتى ينسوا فنون القتال ، و ينسوا تعاليم دينهم ، و ينغمسوا فى الرذيلةِ و الخطيئةِ حتى الثمالة .

صمت الأمراء ليعقلوا ما قاله الأمير ، و عندما فهموا ما قاله و

و أقتنعوا به ، لاحت الإبتسامات على الوجوه ، لتزيد من تلك الشقوق الغائرة ، التى أفترشت الوجوه ، على حين تعالت الحناجر بعبارات التهنئة على هذا الحل المناسب ، الذى لم يتفتق به عقل من العقول الساجدة فى ملكوت البلاط الملكى .

- فعلاً أنت أبليس البشر أيها الأمير .

- نعم .. النساء هن خير سلاح يفتك بالرجال و يفت فى عضد العرب .

- تخيلوا معىّ أيها الأمراء .. العرب وهم غرقى فى بحر من فاتنات الغرب .

- و رب هذا العرش لنقتحم الأندلس حينها كما يشق السكين قالب الزبد .

و استمرت عبارات الثناء تنهال على الأمير ، على حين ظل الملك متجهم الوجه ، جامد الملامح ، و هو يسأل الأمير :

- و كيف لجيش مثل هذا ، قوامه خمسة آلاف فاتنة من الغرب أن يدخل الأندلس دون أن يعلم العرب به ؟

- و من قال أن العرب لن يعلموا ، بل من مصلحتنا أن يعلموا بوجود مثل هذا الجيش و يستقبلوه عند وصوله لحدود الأندلس .

- ماذا ؟

-دع هذا الأمر لىَّ يا مولاىَّ الملك ، و ستشاهد صنيعة عقلىَّ وَ فكرىَّ .

و أخذت إبتسامة الأمير تتسع ...

و تتسع ...

لتشمل البلاط الملكى كله ...

-٢-

على الحدود البرية للأندلس حيث تتربص قوات العرب لحماية الدولة من أى قدم أجنبية تطأها و تدنسها بأوساخ عقولهم و نفوسهم السوداء ، حينما كان الجنود يتسامرون و يتبادلون عبارات قد ملت من تلفظ الألسن بها من كثرة تكرارها ، حيث باعت كالمضغة فى أفواه الجنود .

و لكن ماذا عن الملل الذى يُوَلِّد العناد ، و على حين ساد التراخى و الكسل بين الجنود ، شاهد جندى يعلو برج من الخشب غبار عظيم على مرمى البصر ، و قد تتطاير من آثر ضرب سنابك عشرات الخيول الأرض الرملية فى عنفوان ، فصاح الجندى فى فزع و قد كاد الخوف يدفعه ليسقط من أعلى البرج ، صائحًا :

- هناك هجوم .. الفرنجة قادمون .. استعدوا .

و سرعان ما حمل كل جندى سيفه و قوسه و نشابه و أختفوا خلف الكثبان الرملية ، و أسفل كل حجر ، و أعلى كل ربوة ، لمفاجأة العدو .

و الكل ينتظر قدوم العدو فى صمتٍ ، قد قطعه صوت الأرض و هى تئن بصوتٍ يُشبه دبيب مئات الأرجل ذات السنابك الحديدية ، فقال أحد الجنود فى توجس مُخاطبًا ذلك الجندى الذى يعلو البرج

الخشبى :

-كم يبلغ عدد الجنود المشاة و الخيالة و أصحاب الهوداج ؟

حاول الجندى الذى يعلو البرج الخشبى أن يدقق البصر ، و يخترق حجب الغبار ، الذى أخذ يتعالى حتى عنان السماء ، كأنه مارد يتعاظم حجمه كلما خطى خطوة نحو الأندلس ، فأجاب الرجل فى توتر كسى صوته نبرات متقطعة :

- لا أعلم .. و لكن الغبار يتعالى رويدًا رويدًا حتى يصل لعنان السماء .

- هذا يعنى أنهم غلبة ، و أنهم يتفوقون علينا فى العدد و العتاد .

-كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة يا رجل .

-و لكننا لم نتعد أصابع اليد الواحدة ، و هم ...

- لا تكفر يا رجل بقدرة الله على قلب الموازين .

- الرجل منا بإيمانهِ يُعادل المئات من هؤلاء الكفرة أبناء الكفرة

أبتلع كل جندى عبارته المتوجسة فى حلقهِ ، و هو يرقب عشرات الخيول ، التى تقترب فى سرعةٍ رهيبةٍ ، كأن الريح تدفعها لتعجل من أمر الجنود ، التى أخذت قلوبهم تتعالى نبضاتها فى قوة ، كأنها تعلن عن خوف و رعب أصحابها .

و دق ناقوس الخطر ليعلن عن لحظةِ الاشتباك ، التى ستمر على كلا

الطرفين كأنها دهرًا كاملا لا يعرف للنهاية معنى ، و قد تصلبت السيوف فى أيدى الجنود العرب ، و قد أرتسمت على الوجوه إبتسامات صافية ، استعدادًا للقاء الموت بصدر رحب ، و قد عكرها تلك العاصفة الرملية ، و ...

- ما هذا ؟

- أنهم يشهرون الراية البيضاء .. أنهم يستسلمون .

- ما هذا الهراء ؟

- هل يستسلمون هكذا دون قتال ؟ .. يبدو لىّ إنه شرك منصوب لنا يا رفاق .

- و ماذا نفعل الأن حيال هذا يا كبيرنا ؟

- فليتقدم أحدنا من جيادهم ليكشف حقيقة أمرهم و ما يضمرون لنا ، على أن يحمى الباقون ظهره ، و نكون على استعداد للتصدى لهم عند صدور آية بادرة غدر من أحدهم .

عندما أنهى قائد الجنود العرب هذه العبارة تقدم ثلاثة جنود خلف الكثبان و الصخور ، و كل منهم يتمنطق جواده ، و يُشهر سيفه فى حذر ، و قد هدأت عاصفة الغبار التى خلفتها الخيول خلفها ، عندما تسمرت بالقرب من موقع الجنود العرب لتتضح الصورة ، التى كانت تحتوى عشرات الفرسان المتشحيين بالسواد من أخمص

أخمص أقدامهم و حتى رؤوسهم ، التى زينها لثام أسود لم يبرز سوى العيون ، التى بدت كموج لا نهاية له من المياه الزرقاء .

- أنهم عزل أيها القائد .

- ماذا ؟ .. جنود عزل ! .. ما هذا الهراء ؟ .. عشرات من الجنود الذين يقتحمون بلاد غريبة عنهم و من منافذها الشرعية ، و لا يملكون سلاح ليقاتلوا به ؟ .. إذا لماذا هم ملثمون هكذا ؟ .. أكشف اللثام عنهم يا رجل ؟

هم الجندى من قائد الفرسان المُتشحيين بالسواد ، و قد بدا نحيف العود ، شاهق الطول ، واثق من ذاتهِ ، و قد قبض على طرف اللثام ، الذى يخفى تقاطيع وجهه ، لولا أن قبضت يد الآخير على قبضتهِ ، التى أحتوتها فى قوة لتعتصرها فى شدةٍ جعلت الجندىّ العربىّ يُصدر صيحات ألم ، لم تتعد صدره كأى جندى عربىّ ، أنينه لا يتعد صدره حتى لا يبرز لعدوه ضعفه ، و قلة حيلته ، و لكن آلامه طفحت على آياتِ وجهه المكفهر ، المتوسل ، على حين بدت نظرات قائد الفرسان جامدة ، و هى تتطلع بنظراتٍ زجاجية لعينا الجندى العربىّ اللوزيتين فى تحدٍ و صرامةٍ ، و ...

أطلق قائد الغزاة سراح قبضة الجندى العربىّ ، و هو يُحوّل نظره إلى قائد الجنود العرب ، الذى بدا عليه التوتر و القلق لما يحدث ، و

هو يقول و قد رسم على وجههِ إبتسامة ساخرة أختفت خلف اللثام ، و لكنها طلت من عينيهِ ، و هو يقول بصوتٍ ممتلئ بدا مصطنع بعض الشئ ، أو كونه كون الصوت الآلى الرتيب المُدرب :

- لا داعى للقتال أيها العرب ، فنحن أصدقاء نحمل رسالة لملك الأندلس ، و نود الذهاب لقصر الحمراء .

وجدت الدهشة مبلغها فى نفوس الجنود العرب ، و هم يتطلعوا لذلك الحشد الضخم من الغزاة ، و يقارنوه بما سمعوا من كبيرهم بأنهم قادمون لتسليم رسالة .

- آية رسالة هذه التى يتكبد فى حملها ما يربو من ثلثمائة جندى

- لا شأن لك أيها الجندى العربىّ .

- و ما أدرانى إنها ليست مكيدة الغرض منها الإطاحة بملكنا ؟

- لقد تأكد جنودك من كوننا عزل لا نحمل سلاح و كنا نضمر لكم شر لفتكنا بكم قبل أن يُطرف لأحدكم جفن .

- ما .. ما هذه الثقة المفرطة .. أيها ...

- لا تبالغ أيها العربىّ ، فنحن نعلم أن عددكم لم يتعد أصابع اليد الواحدة ، و إن عتادكم لا يكفى لمنع ذبابة من أقتحام هذه الحدود .. و هذا أدعى أننا قادمون لمهمة سلمية ، و نحن نحملك أضرار أى تأخير فى وصولنا للملك .

تبادل قائد الجنود العربىّ النظرات الحائرة مع جنوده ، الذين بادروا بأعلان تهربهم من إتخاذ قرار يجر عليهم أذيال من المصائب و الأضرار ، على حين أخذ قائد الجنود العربىّ برهة من التفكير العميق ، قبل أن يقول فى حزم و قوة :

-سوف يبقى جنودك هنا على حدود البلاد .. على أن أصحبك بنفسىّ إلى قصر الحمراء لتقابل الملك و تعرض عليه أمرك .

-حسنًا .. و أنا أقبل هذا الأقتراح .

و سار القائدان كلا منهما يتمنطق فرسه الأبجر ، مُتجهين نحو قصر الحمراء ...

آخر معاقل المسلمين فى الأندلس ...

- ٣ -

داخل قصر الحمراء ، ذلك القصر المنيف ، حيث تربع أميرُ المؤمنين المتوج على عرش الأندلس ، و قد تسمر أمامه بعض الجنود ، دخل عليه جنديٌ فى خطواتٍ رشيقةٍ ، مسرعةٍ ، و قد أحنى رأسه فى إحترام و تبجيلٍ ، و عندما وجد نفسه قبالة مليكه أعتدل ، و هو يقول مُخاطبًا إياه :

- رئيس الجند للحدود الشمالية و معه رسول يطلبان لقياك يا أمير المؤمنين .

- ما بال رؤساء الجند اليوم ؟ .. دعهما يدلفان .

دلف رئيس الجند و بجواره قائد الفرسان المتشحين بالسواد ، و قد أنحنى كلاهما أمام أمير المؤمنين ، ثم أعتدل رئيس الجند ، و هو يقول :

- أسعد الله مساءك يا أمير المؤمنين و جعلك زخرًا لبلادنا .

- ماذا هناك ؟ .. هات ما لديك .

و أخذ الجندى يقص على مسامع أمير المؤمنين قصة ذلك الوافد هو و جنوده ، مُدعين أنهم يحملون رسالة لجلالتهِ ، و عندما أنتهى الجندى من سرد قصته ، قال أمير المؤمنين فى دهشةٍ و تساؤل :

- ما بال رُسل الغرب يتوافدون بكثرةٍ اليوم على بلادنا ؟

لم يستوعب الجندى عبارة أمير المؤمنين ، الذى سرعان ما أعقبها بعبارة آخرى أوضحت الرؤيا للجندى ، الذى فهم مغزى عبارة أمير المؤمنين .

- على القادة الأجانب أن يتقدموا إلى الأمام .

أعقب عبارة الأمير ظهور أربعة فرسان ، ظهروا من أربعة جهات مختلفة من الردهة ، و كان بينهم ذلك القائد الذى صاحب الجندى العربىّ ، و قد كان الفرسان الأربعة جميهم ملثمين بلثام أسود يُغطى رؤوسهم فيما عدا الأعين .

-لقد توافد على بلادىَّ اليوم أربعة من الفرسان ، كلّ منهم يحمل رسالة ما تكّبد حملها من بلد غربىّ إلى هنا .. أليس كذلك ؟

لم ينبس أحد الفرسان الأربعة ببنة شفة ، على حين استطرد أمير المؤمنين عبارته كأنه يُحادث نفسه :

- و على الرغم من أن كلاً منكم دخل بلادىّ بطريقةٍ تختلف عن الآخر ، فمنكم من أتى من قبالةِ اليم ، و منكم من أتى من شمال البلاد ، و آخر من جنوبها ، إلا أنكم تجتمعون فى شئ واحد .. ألا و هو هذا اللثام الأسود .. هل سأستمع إلى أشخاص مجهولين ، يرون ملامح وجهىّ و لا أرى سوى أعينهم .. هل لكم يا سادة فى كشفِ النقاب عن وجوهكم ؟

أخذ رجال أمير المؤمنين و جنوده التى تزخر بهم القاعة يتطلعون إلى وجوه الفرسان الأربعة ، كأنهم لم يلحظوا ما لاحظه أميرهم ، بأن كلاً من الفرسان الأربعة يلثم وجهه بلثام أسود ، كأنهم أتفقوا على إخفاء ملامح وجوههم ، و طال انتظار أمير المؤمنين ، و لكن دون جدوى ، فلم يتحرك أى فارس من الفرسان الأربعة قيد أنملة ، فثار أمير المؤمنين ، و هو يقول :

- ماذا هناك ؟ .. هل تعارضون أوامرىَّ و أنتم فى مملكتىَّ ، و استطيع أن اسحقكم بطرفِ أنملىَّ الصغير ، أم ...

أبتلع أمير المؤمنين عبارته على آثر إنحناء وزيره على أذنهِ ، و قد أخذ يُغذيها ببعض الكلمات ، التى ساعدت فى تهدأت ثورة أمير المؤمنين و إخمادها ، و هو يُعاود ليوّجه حديثه للفرسان الأربعة ، قائلاً :

- هل وجوهكم مُصابة بحروق ـ بالغةٍ جعلت من رؤوسكم وجوه لا تصلح إلا لإرهاب ضعاف القلوب و الأطفال ؟

أوماً فارس من الفرسان الأربعة برأسه أن لا ...

أخذ ضيق أمير المؤمنين يتصاعد و هو يقول :

- هل وجوهكم دميمة ، تشبه وجوه القردة و الخنازير ؟

أوماً فارس آخر من الفرسان الأربعة برأسه آن لا ...

- هل شعوبكم تخفى رؤوسها هكذا ؟

أومأ آخر برأسهِ أن لا ...

- عليكم بكشفِ اللثام عن وجوههم لنرى ما بها .

أصدر أمير المؤمنين هذا الأمر لجنوده ، الذين هموا بالتوجهِ نحو الفرسان الأربعة ، لولا صدر صوت أنثوى ، رقراق ، يُشبه عزف القيثارة ، يتحدث بعربيةِ ركيكة ، كان مصدره تلك البؤرة التى تضم الفرسان الأربعة :

- لا داعى يا مولاىَّ الملك ، فأنا قادرة على الأتيان بهذا العمل دون أن تمسسنىَّ يدُ رجلا أجنبيًا عنىَّ .

و تعالت الهمهمات لتصدع جدران القصر بأكملهِ ، و قد عجزت الأفواه عن التفوه ، و هم يُشاهدون أحد الفرسان الأربعة يكشف اللثام ، ليظهر آخر ما توقعه الحضور .

امرأة .. هى آية فى الجمال .. كان الفارس عبارة عن امرأة ، ذات بشرة بيضاء مثل زبد البحر ، لها عينان زرقاوتان كما السماء الصافية ، و شعرٌ ذهبى كثيف الخصلات ، أخذ يتهادى يمينا و يسارًا على آثر تحرك رأس تلك المرأة فى مُحاولة لمنح شعرها قوامه الطبيعى ، الذى قهر أسفل الخوذة الحديدية ، و قد كانت تمتلك شفتان لهما لون التفاح الناضج ، و قد كانتا ممتلئتان بسائل الحياة ، فأكسبهما

نوع من الإثارة يجعل قلوب الرجال تتهافت لتقبيلهما و قطف ثمارهما ، و لا يمكن لنا أن نصف ذلك القوام الممشوق ، الفاره .

ـ ما هذا أنها امرأة ؟

ـ نعم يا مولاىَّ ، فأنا امرأة من أقصى الغرب ، أتيت لبلادك الساحرة و معىَّ رفقة من بنات جنسىَّ ، فارين من أضطهاد الأديان الآخرى للمسيحية ، و بالتأكيد فأنك تعلم يا مولاىَّ أن الأباطرة فى بلادىَّ يقتلون كل من يقول أنا مسيحىَّ ، أو يرفض أن يتخلى عن معتقداتهِ و دينهِ ليدخل فى دياناتٍ آخرى أبتدعها الأباطرة لتخدم أغراضهم الدنيئة ، و تحتم علينا عبادتهم دون الرب ، و عندما علمنا بأن ملوك و أمراء العرب يدعون للسلام و حرية العبادة فى بلادهم ، أتينا إلى بلادك يا أمير المسلمين مُتنكرين فى زى الفرسان ، حتى نفوز بحياتنا ، لنحيا فى ظل عرشكم المجيد ، و ظل حكمكم العادل ، و نجعل من بلادكم وطنا أبدى لنا ، و قلعة نحتمى بها لنحمى تقاليد ديننا من بطش الأباطرة .

انحدرت بلورات شديدة اللمعان من تلك العينان الزرقاوتين ، لتشق طريقها عبر وجنتيها ، و تستقر على شفتيها الحمراوتين ، لتتوفى فى هدوءٍ و صمتٍ دون أن تزعج أحد ، على حين لانت ملامح أمير المؤمنين ، و هم أن يتجاوب مع المرأة و يبكى على حالها ، لولا إنه

تدارك نفسه ، فحاول أن يتغلب على حالةِ الحزن التى غلفت المكان ، و هو يقول :

- و ما اسم السيدة ؟

- كورنثا .

- حسنا يا كورنثا ، سننظر فى أمرك فى نهايةِ جلستنا .. و ماذا عنك أيها الفارس الملثم ؟

أشار أمير المؤمنين إلى الفارس الثانى الذى كان يُجاور الحسناء ، و الذى سرعان ما كشف عن اللثام ، لتتعالى الأفواه بالصياح هذه المرة ، و لم تكتف بالهمهماتِ المُتعجبة ، فقد كان الفارس الثانى لم يكن سوى امرأة آخرى ، و لكن جمالها و فتنتها قد فاقت الأولى ، بشعرها النارى ، الذى يُشبه غروب الشمس ، أو بالنيران التى ستشتعل فى قلوب الناظرين لها من الرجال .

- ما هذا ؟ .. أنها امرأة آخرى .

- نعم يا مولاىَّ ، فأنا امرأة من وراء المحيط أتيتك و معىَّ رفقة من نساء وطنىَّ و بنى جنسىَّ راغبين فى تعلم علوم الشرق ، فنحن نساء وهبنا أنفسنا للعلم و إسعاد البشرية ، و عندما بحثنا عن وطن يضم قدرًا وافرًا من العلماء و النابغين فى شتى العلوم لم نجد سوى الأندلس و أميرها و مليكها الذى يهتم بالعلم و العلماء و

الراغبين فى التعلم و الدراسة دون النظر إلى ديانتهم أو جنسيتهم .. أليس كذلك يا مولاىَّ ؟

- هو كذلك يا ...

- اليزابيث .

- حسنا يا أليزابيث ، سننظر فى أمرك فى نهايةِ جلستنا .. و الأن ماذا عن الفارس الثالث ؟

أشار أمير المؤمنين إلى الفارس الثالث ، الذى كان يُجاور صاحبة الشعر النارى ، و الذى سرعان ما كشف عن اللثام ، لتتعالى الأفواه بالصياح الذى يطوى فى جنباتهِ آيات الدهشة العارمة ، فقد كان الفارس الثالث لم يكن سوى سمراء جذابة بلون الليل ، كأنها اقتطعت من السماء البوهيمية لتمتثل فى مجلسهم .

- ما هذا الهراء ؟ .. هل مجلسنا أصبح للنساء ؟ .. و ماذا عنك أنت إيضًا يا سيدتىَّ ؟

- عفوًا يا مولاىَّ .. فأنا لم أقصد خداعك ، و لكن لم يكن أمامىَّ سوى هذه الطريقة لننجوا بأنفسنا .

- تنجون بأنفسكن .. من أنتن يا سيدتىَّ ؟ .. و ما هى قصتك ؟

- أنا امرأة يا مولاىَّ أتيت من القارة السمراء ، التى أحتلها الغزاة ، و قد شردوا آلاف النساء و الرجال ، و من نجا من أهل

البلدة صار عبدًا للغزاة البيض ، و أصبح شرف نسائها ملهاة لهم ، و يكون مصير من تحبل منا هو الصلب ، و دفن وليدها حيًا أمام عينها لتزداد حسرة عليه قبل وفاتها ، و لم يكن أمامىَّ أنا و رفاقىَّ سوى الهرب إلى بلادك يا مولاىَّ لنحتمى بها .. حيث لا فرق بين الأبيض و الأسود ، حيث نجد حريتنا هنا ، لنعامل كأحرار لا كعبيد ، لنكون مخيرين فى أمورنا و لسن مجبرين على إطاعةِ الأوامر و بيع شرفنا و حياتنا للعدو .. فهل تقبلنا فى بطانتك لنكون من بين أفراد شعبك يا مولاىَّ ؟

-حسنا يا ...

-إيفان .

-حسنا يا إيفان .. و لكن لىَّ سؤال .. بما أنكن من القارة السمراء و بالطبع مررتن على مصر المحروسة فلِمَ لم تنزلن بها ؟ .. فهى مهد الحضارات و الدين و هى بلدٌ واسع و جذاب ؟

بدت الحيرة على وجهِ السمراء ، و هى تبحث عن إجابة لهذا السؤال المباغت ، و بعد برهة من التفكير و البحث عن إجابة ، أشرق وجهها بعض الشئ ، و هى تقول فى شك من مصاقية ما تتفوه به :

- أنت قولتها يا مولاىَّ منذ برهة إن مصرَ بلدٌ واسع سوف نغرق فيه دون أن نجد فيها رعاية ، و قد نتعرض لمعاناة التفرقة

العنصرية لكون بشرتنا ذات لون داكن ، و لغتنا العربية ركيكة ، و لكن هنا فى الأندلس ، فالبلد صغير ، وأنت ملك قوى ، يدك تشمل كل ركن فى مملكتك ، فتستطيع أن تشملنا برعايتك و حمايتك يا مولاىَّ .

أومأ أمير المؤمنين برأسهِ أن نعم ، و هو يقول فى استهجان و تأكيد لقول السمراء :

- نعم .. نعم فأنا ملك قوّى ، أسبغ رعايتىَّ و حمايتىَّ على كل ركن فى مملكتىَّ .. حسنا يا إيفان سننظر فى أمرك فى نهايةِ جلستنا .. و الأن حان دور الفارس الرابع .. و أنا أتوقع أن يكون فتاة شقراء ، جذابة مثل من سبقوها .. أليس كذلك ؟

- نعم يا مولاىَّ .. بين يديكم الطاهرة مارى لويس من فرنسا .. و قد حضرت إلى بلادك من أجل ...

- لا عليك يا سيدتىَّ .. لا داعى لأن تسردى روايتك ، و الأن نبصر فى أمركن .. ما رأيك يا وزيرنا ؟

تنحنح الوزير ، و هو يقول :

- يبدو أن الأمر شائك بعض الشئ يا مولاىَّ ، و لكن ...

- و لكن ماذا يا وزير .. أنهن نساء ضعيفات ، لا حول لهن و لا قوة ، يطلبن الحماية و التزود بالعلم ، فهل نرفض أن نمد يد العون

لهن .. و ماذا يقول العالم الغربى عنا يا وزير ؟

- الأمر ملك يمينك يا مولاىّ .. و القرار لك .

- نعم القرار لىّ .. فليسمح بدخول هؤلاء النسوة إلى بلادنا ، و ليسكن السكنات البحرية ، و يتم تدعيمهن من حر مال القصر الملكى ، و يقدم لهن صنوف العلم و المعرفة حتى ينهلن منها ما يشئن .. و ليمرحن فى بلادنا الجميلة كيفما شئن .

ثم وجه عبارته للفارسات الأربعة ، قائلا :

- و لكن لىّ شرط .

- أوامرك يا مولاىّ .

- من كل وفد أحصل على عشرة نسوة كجوارىّ ملك يمينىّ .

- نوافق .

و لاحت إبتسامة رضا على وجوه النساء الأربعة .

- ٤ -

بعد مرور ثلاثة أعوام ...

أخذ أحد عيون الغرب فى الأندلس و فرسانها يدب على الأرض فى خطواتٍ متثاقلة ، و هو يُردد فى شجن :

- ما لهذه الأرض قد دب فيها الضعف ، و زحف عليها اللون الأصفر ، كأنه وحش كاسر جرد امرأة من ثيابها ، فبدا جسدها مترهلاً ، قبيح المنظر ؟ .. أين الأندلس منذ ثلاثة أعوام عندما رأيتها للمرة الأولى و ذلك السحر قد عبق هوائها ؟ .. حتى قصورها باءت كالأزهار الذابلة و قد أمتص النحل رحيقها ؟

و استكمل مسيرته و قد غزا خليط من المشاعر المُتضاربة صدره .. هل يحزن على ما أصاب الأندلس من خرابِ الذمم و بوار الأرض الخضراء ، حتى قرميد القصور أصبح الحزن يسبغ لونه الأحمر لتبدو القصور بالية ، متهالكة ، و الحقول التى كان يدنى قطوف ثمارها إينما ذهب ، صارت فروع أشجارها كالوطن المهجور ، فأصبحت كتلة من الخشب البنى الذى أقتصت منه أشعة الشمس ، و قد بدت الأوراق الخضراء المدحورة عند سفح الأشجار ، كأنها جثث تفترش الأرض فى صمتٍ ، أم يسعد لكون الأندلس أصبحت أرض لا يسكنها سوى الأشباح ، و بهذا تصبح صيدًا ثمينا

طالما أشتاق رؤوساؤه لاقتناصه ؟ .. و لكن ماذا عن فرسانها ، و فتيانها الذين يمخرون عباب الحروب بذبابةِ سيوفهم ؟
و أخذت قدماه تحملانه من بقعةٍ إلى آخرى ، و الدهشة تتأجج فى عينيهِ كالنار التى تزكيها الرياح ، و كان هناك سؤالٌ ينهش فى صدره كما الذئب الجائع .
هل فتت خطة رؤسائهِ فى عضدِ العرب ، و هل نجحت فى أن تنخر كما السوس فى فتوةِ شبابها لتحيل الفرسان إلى كهول ، و الرجال إلى شيوخ ، و الصبية إلى حجمهم الطبيعى ، و تقتل الفروسية بنفوسهم ؟
تهادى إلى مسمع الفارس صوتٌ نحيبٌ قريب منه ، فأخذ يلتفت يمينا و يسارًا ليقتنص عن مصدر هذا النحيب ، حتى وجد فتىً فى مقتبل العمر يتكور بنفسهِ ، و يذرف الدموع فى رقةٍ كالنساء ، فأقترب منه فى خطى عجلة ، و هو يقبض على وجهه ليرفعه من بين أنقاض ركبتيه ، و ...

- أهو أنت أيها الصغير ؟
- هل تعرفنىّ أيها الفارس ؟
- نعم .. ألا تتذكرنىّ ؟ .. أنا ذلك العابر الذى صادفته منذ ثلاثة أعوام فى مثل هذا المكان ، و قد كنت تتحب لسوء حظك فى رمى السهم ، و إصابة تفاحة من ثلاث تفاحات ، و كتب علينا أن نتبارى

أنا بسيفىَّ و أنت بفرع شجرة واهى .. و أصدقك القول ، لقد كنت منازل بارع .

- حسنا .. لقد تذكرتك .. ماذا هناك ؟

دهش الفارس لسلوك الفتى الفج ، و لكنه التمس له العذر ، فحالته و ذلك الغضب الكامن بنفسهِ قد يفقدانه صوابه .

- لقد كنتُ مارًا بهذه الأرض عندما تهادى لسمعىَّ صوت نحيبك فأتيت إليك حيث استطلع الأمر .. ها ماذا يبكيك هذه المرة يا صغيرىَّ ؟

- لقد .. لقد هجرتنىَّ حبيبتىَّ و ذهبت لفتى آخر بعدما منحتها كل شئ ، و أشبعت حاجتها .. لقد منحتها الحب و المال و الاستقرار ، فور ما شعرت بضعفٍ قد دب بأوصالىَّ فارقتنىَّ حيث لا رجعة .

- هل هى أحدى فتيات العرب ؟

- لا .. بل هى من بلاد الفرنجة ، من بلاد ما وراء المحيط ، إنها فتاة نادرة الوجود بذلك الجسد البض ، الأرعن ، و خصلات شعرها الذهبية كما أشعة الشمس ، و ...

نهض الفارس مُودعًا الفتى و قد لاحت إبتسامة رضا على شفتيهِ ، و هو يصرخ فى قرارة نفسه من السعادة الغامرة التى تجتاحه .

لقد فتت خطة رؤسائه فى عضدِ الأندلس .. لقد فتت النساء فى نخر فتوة شبابها ، لقد أحالت النساء الأندلس إلى مدينةٍ تسكنها الأشباح .. أشباح العرب .. هنيئا للغرب ، لقد ذابت السدود العربية ...

و سرعان ما كتب لرؤساءِهِ بأن يسرعوا بحشد الجيوش و الأتيان على الأندلس التى خلت من الفرسان ...

و كانت هذه هى نهاية الأندلس العربية ...

نهاية حضارة كاملة انتهت بين فروج النساء .

العمـــل العاشر

شرخ فى شرنقة الصمت



ك
كان نائمًا كالحمل الوديع يتدثر بحبِ أمهِ ، التى ترقد بجوارهِ ، و يستمد رجولته المبكرة من قوةِ والده ، الذى يرقد على مقربـةٍ منه يتأمـل فى صورتـهِ ، ليجـد جزءًا من ملامحهِ قد نُسخت على وجهِ هذا الصبى ، الراقد فى صمتٍ .

و لكن يبدو أن الأشباح كانت تطارده فى منامهِ ، كما تسعى خلف ذويه فى اليقين .. لتصفى أجسادهم ، و تعب الأنهار و البحور من دمائهم ، و تصنع الجسور من أجسادهم الخاوية على عروشها ، و قد سلبت منها الأرواح ليعبروا عليها من ضفةٍ إلى آخرى ، و ينتقلوا من بلدٍ إلى آخر ، و الدنسات تلحق بهم فى كل خطوة يخطوها .

كان نومه غير مستقر ، فقد كانت ملامح وجهه غير هادئة ، فكانت تبدو جزعة ، و تارة آخرى تنفرج أساريره ، كاشفة عن إبتسامة هادئة ، و ...

- لا .. آه .. والدىَّ .. أمىَّ .

و نهض مفزوعًا ، لتغمر صورة أمه و أبيه عينيه فيستمد منهما بعض الهدوء ، و هو يلقى بجسدهِ الصغير فى حضن أمه الخضم .

- ماذا حدث يا بنىَّ ؟ .. ما بك ؟

-ماذا أصابك يا ولدىَّ ؟ .. أهو كابوس أرق منامك ؟

-لقد .. لقد كان حلمًا فظيعًا .. مريعًا .

جلس الوالد بجوار ابنه ، و هو يربت على رأسهِ فى حنان ، كمن يقول له ((لا تقلق أنا بجوارك ، و لن يصيبك مكروه)) .

-يا ولدىَّ .. إن جرذان البشر سبوا الحلم من الجميع ، و لم يتركوا لنا سوى الكوابيس ، تزورنا كل يوم لتجعلنا ننهض مفزوعين ، موتورين ، مثلك الأن .

-و لكنه كان واضحًا يا أمىَّ مثل الحقيقة .

-لعلها رؤية يا صغيرىَّ .

-قص علينا ماذا رأيت يا ولدىَّ .. قص علينا لعلك تكسر أحزاننا ، و تبدد هذه العلبة التى نحيا بها ، ظانيين إنها تقينا من بطش جرذان البشر .

عادت ملامح الفتى تبدو جزعة ، فزعة ، كأنه تذكر ما حلم به دفعة واحدة ، و هو يُردد :

-لا أعتقد يا والدىَّ .. فهو حلمٌ كاد يُوقف قلبىَّ هلعًا ، و يخنق أنفاسىَّ فزعًا ، و تفزع عيناىَّ لمرءاه رعبًا .

جزعت الأم لكلماتِ ابنها ، و هى تستشعر فيه ذلك الخوف ، الذى يُعربد بداخلهِ ، فجعله ينتفض كالورقة التى تتعرض لريح شديدة و

هو مستكين لضمةِ أمهِ الشديدة لصدرها ، لعلها تنجح فى أمتصاص خوف وليدها .

- تحدث يا ولدىَّ و لا ترهق أعصابنا و كفانا ما نلاقيه من عبث بالنفوس البشرية .

صمت الطفل برهة ، و قد بدا مُتجهمًا بعض الشئ ، و قد بدت عيناه ثابتة ، مُتحجرة ، كأنه يُحاول أن يغوص فى ذاكرتهِ ، ليستدعى ما رأه فى حلمهِ ، ثم قال و شبح إبتسامة ُترسم على وجهه :

- عندما غطت عيناىَّ فى نوم عميق ، و استقرت نفسىَّ فى تابوت الموتى الصغرى ، وجدت نفسى أسير حديقة غناء .. الأرض خضراء ، و الزرع يُحيط بىَّ من كل جانب ، ثم أبصرتك يا والدىَّ تجلس أسفل شجرة صفصاف بالقرب من منزل شاهق اللون كما السحاب الأبيض ...

- هذا يُشبه منزلنا قبل أن تهبط علينا الجرذان البشرية .

أومأ الطفل برأسهِ و هو يقول :

- هذا ما أخبرتنىَّ به فى الحلم يا والدىَّ .. و قد أخبرتنىَّ إيضًا أن بلادنا الملسوبة تحت وطأة أحذية الجرذان البشرية كانت كالأرض الخضراء التى تحيط بنا من كل جانب ، و نغوص فى

فى خضرتها كأننا نغوص فى بئر لا قرار لها .. و أثناء سيرنا نحو بيت المسلمين ، وجدت الأرض الخضراء تتحول لأرض حمراء اللون ، جدباء ، و الشمس أعلى رؤوسنا تبطش بنا بأشعتها الحارقة . أخذت أنفاس الطفل تعلو و تهبط مُتلاحقة ، فأشفقت الأم على وليدها فقالت له راجية :

-اصمت يا ولدىّ ، و هدأ من روعك ، إن آيات الإعياء تبدو على قسماتِ وجهك .. اصمت يا ولدىّ .

و لكن الزوج قال فى عنادٍ طفولىّ :

-دعيه يبوح بما فى صدره .. دعيه يصرخ ، لعله يكسر جوقة صمتهِ ، و يتحرر مما يُلجم لسانه ، الذى بدا كالفرس الأبق .. دعيه يروى ما شاهده فى حلمهِ .. تحدث يا وليدىّ ، فكلى آذان مُصغية ...

-حتى أشتد الظمأ بنا ، و تقشفت شفانا ، ثم ظهر لنا على مرمى البصر بركة ماء ...

-وسط هذه الصحراء القاحلة ؟!

-نعم يا أبتىّ ، وسط هذه الصحراء الجرداء ، كانت تتربع على مرمى البصر .

قالت الأم فى ريبةٍ و قلق :

-اللهم سترك يا رحيم .

ـ أخذنا نعدو نحوها بكل ما لدينا من قوة ، نسقط تارة ثم ننهض لنستكمل مسيرتنا ، ولاح لىَّ الماء الصافى ، العذب ، و لم استطع الوقوف أمامه صامتًا ، و على النقيض فكنت تقف أنت يا أبتىَّ ساكنًا ، صامتًا ، و أنت تبصر أغصان الزيتون التى تدلت من السراب ...

قالت الأم فى حسرةٍ ، و قد شعرت بطعنةٍ حادة فى صدرها :

ـ سامحونا يا أجدادنا .. سامحونا .

ـ أكمل يا بنىَّ .. و ماذا بعد ذلك ؟

ـ ركعت على قدمىَّ و مددت يدىَّ نحو الماء لأشرب منه ، و فجأة ...

دوت صرخة جزعة من حنجرة الطفل ، و هو يضع كفيه الصغيرين على وجههِ ، كأنه يُحاول أن يخفى ما رآه فى حلمهِ ، و رسخ فى ذهنهِ ، على حين دفنت الأم رأسه فى صدرها ، و هى تملس على شعره ، مرددة تلك العبارات الأزلية التى لم يمحها التمدن :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. اللهم أنىَّ استعيذ بك من وسوسات الخناس ، و نظرات البصاص من الناس ، و هواجس النفس و الأنفاس .. ماذا بك يا وليدىَّ ؟

و تزلزل الوالد من مكانهِ ، و هو يصيح فى ولده أن يكف عن سرد ما لديه من عباراتٍ قد أفزعته ، و جعلت قلبه الصغير ينتفض فى قوةٍ ، كأنه يرغب فى الفرار من صدرهِ العاجى ، و صمت الطفل مُستجيبًا لرغباتِ والديه ، و لكن صمته لم يدم سوى دقيقة واحدة ، و هو يستطرد كلماته :

-لقد .. لقد تحولت بركة الماء الصافى إلى لون أحمر ، قانى ، و كان أبىّ يصيحُ فىّ و هو يبتعد عنىّ و يتركنىّ ، و هو يصيح فى رعبٍ ... إنها دماء .. دماء .. إنها البركة الملعونة التى تلتهم الرجال و النساء و الأطفال ، و تلفظ بأجسادهم البالية أسفل قدم بيت المسلمين ، و ترتوى من دمائهم .. أبتعد يا ولدى .. أبتعد .. و غاب والدىّ عن نظرىّ ، و .. آه .. آه .. لا ...

عاد الطفل لصراخهِ و عويلهِ مرة آخرى ، و لكن هذه المرة كان عنيفًا ، استمد عنفه من رعبهِ الكامن فى صدرهِ ، و هو يستأنف عبارته قائلاً ليقطع تأوهات والديه :

-أنىّ أغرق .. أغرق .. أنقذنىّ يا والدىّ .. أنقذنىّ ...

-لا تخش شيئًا يا ولدىّ .. أنا بجوارك .. إهدأ .. إهدأ ...

-لقد كان شيئا قويًا يجذبنىّ إلى البركة ، و منها إلى القاع ، ثم ...

صاحت الأم :

- ثم ماذا يا ولدىَّ ؟ .. أنطق ...

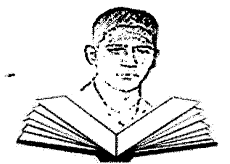
- وجدت نفسىَّ جثة هامدة تطفو على سطح البركة ، ثم ظهرت أنت يا والدىَّ لتحتضنىَّ بين ذراعيك .. فقلت لك فى خوفٍ و حبٍ و خشيةٍ .. سامحنىَّ يا والدىَّ لأننىَّ جعلتك تسقط فى بركةِ الدماء هذه .. سامحنىَّ يا والدىَّ لأن دمىَّ لطخ قميصك و صدرك .

و أجهش الطفل فى البكاء ، على حين أنتزعه والده من صدر أمه ، و هو يودعه أمانة بصدره ، و هو يُردد :

- لا تخش شيئـًا يا ولدىَّ .. أنت جالس بيننا و فى مخيمنا .. ألم أقل لك إنه كابوس ، لأنهم سبوا الأحلام منا .. و لكن حسنـًا فعلت .. تكلم .. أصرخ .. عبر عن مكنون صدرك .. المهم أن تكسر تلك الشرنقة التى نحيط بها أنفسنا ، و قد أطلقنا عليها الصمت .. توغل فى الواقع و تألم ، لكن لا تجعل الصمت سلوتك .. حسنـًا فعلت يا ولدىَّ .. حسنـًا فعلت .

العمل الحادى عشر





ج

جلس أمام التلفاز يُشاهد أحد الأفلام العربية ، و قد أفترش مقعدًا وثيرًا تربع أمام مدفأة ، أخذت ألسنة اللهب تلظى داخلها ، و هى تلتهم بعضها البعض ، كأنها الوحوش الضوارى .

كانت آياتُ التأثر بما يُعرض على التلفاز ظاهرة على وجههِ المتغضن ، و تلك الإبتسامات الهادئة غادية و رائحة ، لتطبع على خلايا وجهه ، معلنة أحتلالها الكامل لصاحبها ، الذى أصبح جزءًا لا يتجزأ من المعروض داخل تلك الأضلاع الأربعة .

و تاهت إبتساماته بين تلك الأخاديد الغائرة فى وجههِ ليحل محلها الوجوم و التأفف ، و هو يُشيح بنظرهِ عن التلفاز ، تلك النظرات المُتحجرة ، التى لا تعرف الحيد عن مشاهدة ما يُعرض على التلفاز ، و أتجهت تلك الأصابع المُتصلبة نحو طبق عميق ، يُشبه نصف ثمرة البطيخ ، و أخذت تقبض الأصابع على حباتِ الذرة ، التى تعربد داخل هذا الطبق لتقذف بها فى فمهِ ، الذى أمتلأ بعباراتِ التذمر ، بمُجرد أن تراءى لسمعهِ عبارة ((أنباءٌ عاجلة)) ، التى توسطت شاشة التلفاز بلون أحمر قاتم ، لا يعرف للأفراح معنى .

- أهذا وقت الأنباء الهامة ؟ .. ما لنا و هذه الأخبار المشئومة ، التى لا تحمل لديارنا سوى الشؤم .. إن التلفاز يتفنن فى كيفيةِ

مُضايقة المُشاهدين ، ها أنا ذا لن أتذكر أحداث الفيلم بعد هذه الجرعة من النكد المُكثف ، و ستتوه خيوط الأحداث فى رأسيَّ مع الزمن .. يا ترى سيتزوج البطل البطلة فى نهايةِ الفيلم ؟

و أخذ يُزبد و يتشدق بعباراتِ التذمر ، و هو يضع إهتمامه فيما يدفعه فى بلعومهِ من حبات الذرة ، حتى غزت بضعة كلمات صادرة من التلفاز أذنيه ، جعلته ينتفض فى مجلسهِ و يروض نظراته لتعاود حماسها المفقود ، و ترى المرسوم على الشاشةِ المربعةِ ، و أرتفعت حواجبه ، و أنعقدت ، حتى كادت تتلاصق من شدةِ الأنفعال ، و قد تلفظ لسانه ببعض العبارات العفوية ، النابية دون وعى .

-يا أولاد الكلب .. يا جبابرة .

و أخذ يصغى لكم العبارات ، التى شحذت خلايا مخه الرمادية ، و نجحت فى أن تفقد لسانه وعيه و رشده .

-تمادى اليهود فى بطشهم بالعزل من الأطفال و النساء و الشيوخ و المدنيين من الشعبِ الفلسطينى ، و مع كل غروب يُشيع الرجال عشرات القتلى من أبنائهم و ذويهم ، و تعج المستشفيات بمئاتِ الجرحى و المُصابين .

حاولت عبرة حارة أن تفر من مقلاتيهِ و لكنه هم بعقرها ، و هو يشاهد جثث الضحايا من الأطفال و النساء و الدماء تغطيهم ، كأنه

الثرى الذى يغلف أجسادهم ليبعثهم فى رحلةٍ أبدية إلى الجنات العلا ، التى وعد الله الشهداء بها .

كان منظر الأطفال المُصابين يندى له الجبين ، كأن كل خلية مُصابة فى أجسادهم تئن و تصرخ ، طالبة العون من كل عربىّ .. كأنها تتساءل قائلة .. لماذا لم تصنع الأمم المتحدة جمعية لحماية الأطفال من مجرمى الحرب بدلاً من أهتمامهم بجمعيات الرفق بالحيوان ؟

- و لم يكتف اليهود بما فعله الإسترالى دينيس مايكل روهن فى الحادى و العشرين من أيلول عام ألف و تسعمائة و تسعة و ستين من حرق المسجد الأقصى مُدعيًا إنه يُحقق نبوءة فى سفر زكريا بالتوراة ، و كان الناتج هو حرق منبر صلاح الدين و محراب زكريا و المحراب الرئيسى للمسجد .

أزلف لسانه بعبارة مُتعاطفة مع ما يراه على شاشةِ التلفاز من أدخنةٍ سوداء كالموت ، تتصاعد من كل ركن بالمسجد الأقصى ، الذى أخذ يصرخ و يصيح باحثًا عن صلاح الدين فى عيون من يُحاولون إخماد النيران المُشتعلة فى أرجائهِ ، و هو يقول :

- حنانيك يا قدس .. حنانيك يا قبلة العاشقين .

و تمتد الآثام اليهودية لأتهام أطفال الحجارة بالإرهاب ، تلك

تلك الأطفال التى تتحامى خلف حجارة صماء ، عقيمة ، تتصدى لأسلحة فتاكة و قذائف و دبابات يتحامى خلفها اليهود .. لقد أدعوا أن إنتفاضة أطفال الحجارة التى أندلعت فى عام ألف و تسعمائة و سبعة و ثمانين ، و قد أرخت لوائها عام ألف و تسعمائة و أربعة و تسعين ، ما هى إلا حركة إرهابية منظمة ، لابد من ردعها و إخمادها ، و إخماد كل من يُنادى بالحرية .

أنتفض جسده فى مقعدهِ ، و هو يصيح فى أنفعال :

- أطفال لا يبغون إلا السلام يوصمونهم بالإرهاب ، يقتلون الأطفال ، و يذبحونهم على قارعةِ الطريق ، و يلقبون أنفسهم بدعاة السلام .. أى سلام هذا الذى يُلطخ لواءه دماء الأبرياء من الأطفال و النساء .. لعنة الله على كل يهودى .

- و اليوم التاسع و العشرين من أيلول عام ألفين ، أعلن رئيس الوزراء اليهودى آريل شارون .. سفاح النساء و الأطفال ، سخريته من كل المقدسات الإسلامية و المسيحية بالقدس الشريف ، و قد أقتحم المسجد الأقصى مُتمنطق نعل حذاءه القذر ، و هو فى لفيف مكون من ثلاثة آلاف جندى يهودى ، منهم من وطأ أرض المسجد الطاهرة و هو يعلو ظهر فرسه الدنس ، و منهم من جعل مدفعه الآلى مفتاحًا يفتح له تلك الأبواب ، التى صُنعت من أجساد الشباب و الأطفال

الفلسطينيين ، الذين يُدافعون عن طهارة المسجد الأقصى ، منفذا تهديده للمسلمين بأنه قادر على تدنيس مقدساتهم فى القدس ، و ها هى طلقات رجاله تستهدف الصخرة المُخصصة لصلاة النساء ، لتحصد المصليات دون تردد ، كأنه الهشيم الذى يندلع فى كومةٍ من القش الجاف .. و يبدو أن الأرض الفلسطينية المقدسة ستشهد إنتفاضة آخرى ، الغرض منها حماية المسجد الأقصى من دنسات اليهود ، و على رأسهم رئيس الوزراء اليهودى آريل شارون ، ذلك السفاح ، قاتل النساء و الشيوخ و الأطفال .. و إلى هنا تنتهى نشرتنا الإخبارية ، السلام عليكم و رحمة الله و بركاته .

و مع أنتهاء تلك الكلمات الحزينة ، التى كانت تقطر من بين حروفها الملطخة بالأسى حزنًا و صمتًا ، فرت العبرات من عينيهِ حارة لتبلل وجنتيه ، و تستقر على شفتيهِ ، لتصبغها بذلك الطعم الملحى ، و هو يودع بعينيهِ صورة الأطفال القتلى ، و النساء المُغتصبة ، و الكهول الجرحى ، و الأمهات الثكلى .

- أه لو معى مدفع لذهبت إلى الكنيستِ ذاته لأدمر كل رأسًا يهوديًا عفنا .

و سرعان ما أمتدت يداه لتمسح كل آثر لعبراتهِ الحزينة ، التى توارت بين خلايا وجهه خجلى ، و هى تلمح ذلك التغير المُفاجئ

الذى طرأ على آياتِ وجهه ، و تلك الإبتسامة التى أفترشت وجهه ، لتمتد من شحمةِ أذنه اليُمنى ، حتى شحمة أذنه اليُسرى ، مُبرزة نواجذه البيضاء التى لُوثت بعض الشئ من آثر حباتِ الذرة ، التى عاد لألتهامها فى جذل و نهم .

كان هذا التحول العجيب على آثر أندماجه مع أحداث الفيلم ، التى نجحت أحداثه الكوميدية فى تبخير أى آثر حزين كان يخط أقلامه على وجههِ الباسم .

و هم أن يغلق التلفاز ، لولا أن قاطعه صوت مذيعة الأخبار ، التى تعلن عن مقتل المزيد من الشهداء الفلسطينيين على أيدى جنود رئيس الوزراء اليهودى و السفاح آريل شارون ، و ...

-ما هذا القرف ؟! .. قتلُ و دماءُ بعد أحداث الفيلم الممتعة ؟

ثم أغلق التلفاز و هو يتأفف ، و قال فى تذمر و هو يتجه نحو غرفة نومه :

-إن التلفاز المصرىّ يتلذذ فى ضياع إثارة المُشاهد بهذه الأخبار المُثيرة للكآبةِ .. ما لنا و ما يحدثُ فى فلسطين أو غيرها ؟!!

و غط فى نومٍ عميق .

العمـل الثانى عشر

عود الزيتون .. عودى



تـرسـمون بـأقلامكم صـورًا للعشـق ، مُعتقـدين أنهـا صـورًا خلابـة ، تعبـر عـن خبايـا الحـب .. تكتبـون بأقلامكم عبـاراتـًا زاعقة ، تمجدون بها التضحية فى سبيل من نحب .. تقتبسون من العباراتِ أجملها لتصفون بها العيون السوداء كالليل أو الخضراء كالسهول ، تمدحون فى النهود ، سواء أكانت دقيقة كالبرتقالة ، أو متفحلة كثمرة البطيخ ؟ .. بارعون أنتم فى وصفِ الشفاه الحمراء بلون الدم ، كأن أنهار الدنيا من دماء الرجال تصب فى شفاة النساء المُدماة .

و لكنىَّ أرى ما تكتبون فى الحبِ و العشق هُراء و إدعاءات ، عباراتٌ مُصطنعة ، مُزوقة ، و لكنها خالية من صدق المشاعر .

أنىَّ أرى أن الأرض لم تعرف للحبِ معنى ، و لم تعرف للعشق وجود ، و إن إبتلاء الرجال بالنساء ، و إبتلاء النساء بالرجال و سعى كل طرف للآخر ما هو إلا سعىٌ وراء الغريزة ، حتى ما فعله شمشون من أجل دليلة ، و ما أقترفته يدا قيس ليقدمه لليلى ، و مُحاربة روميو للمجتمع من أجل السمو لحبيبتهِ جولييت ، ماهو إلا إدعاءٌ كاذب .

و من قال أن كيوبيد يعرف معنى الحب فهو مُخرف ، كاذب ، و من قال أن أفروديت عشقت أدونيس فهو مُدعى ، فلا أحد فى هذه

البشرية يعرف معنى الحب و العشق و الدلال إلا أنا و هى ، فنحن المعلم الأول لهذه الدنيا ، نحن من نسبغ على البشرية الحب .. العشق .. الجمال .

فدعونى أريكم صورة من صور الحب ، ومعنى جديد للعشق لم تراه أوراقكم .

عندما ابصرتها لأول مرة ، تسمرت أمامها كالمعتوه .. أنا الذى سبح فى كل أرجاء العالم .. دخلتُ مصر ، و علمت السر الكامن فيها الذى يجلب الرجال لها ، أقتحمت باريس ، و رأيتُ متحف اللوفر مرسومًا على صدور نسائها ، و ذلك البرج الشاهق - برج إيفل - ينطوى بين نهود فتياتها التى تكاد تختفى بين عظامهن من شدةِ نحولها ، و زرت إيطاليا ، و رأيت من نسائها عجب العُجاب ، و ذقت من شفاههن أشهى قبلة ، فامرأة إيطاليا تمنحك قبلة لا تعرف للحرمان طعم ، شعرت و أنا أعتصر أجسادهن المديدة بين ذراعىّ ، كأنىّ أعتصر برج بيزا المائل ، أما فتيات لبنان ، فيكفى أن تتطلع لهن ، و تتعجب لنصاعةِ أجسادهن البيضاء ، كأنك تطئ ثلوج جبالها لا أجساد نسائها ، و ترى فى عيونهن الخضراء أشجار الأرز .

أما هى فكانت حالة خاصة بين نساء العالمين ، فعندما اصطدمت عيناىّ بعينيها ، شعرتُ بأنىّ سباحٌ ماهرٌ ، وجد نفسه فى لجةٍ من

عيناى بعينيها شعرت بأنىَّ سباحٌ ماهر ، وجد نفسه فى لجةٍ من الماء ، ومع كل ضربة يد ، أشعر بأنىَّ أسبح إلى ما لا نهاية ، كأنىَّ أطوف بحور و محيطات الدنيا .. فتارة أجد نفسىَّ أسبح فى المتوسط و تارة آخرى فى الأطلسى ، كنت أشعر بأنىَّ أفوق كولمبوس و ابن ماجد ، فهما اكتشفا أمريكا ، أما أنا فأكتشفت الكون كله فى عينيها ، فأنا أول من عرف القارة السمراء ، و طاف بصحرائها و سُحر بجمال وديانها ، وأول من وطئ آسيا ، لأتوه فى الفيافى المقفرة ، و أنا الذى سميتها أوروبا ، نظرًا لصغر حجمها ، و قد بدت لىَّ كالطفل الصغير الذى نشأ من بين أقدام هامان و جالوت .. أقصد آسيا و أفريقيا .

ماذا أقول عن شعرها الأسود الحالك ، و كنت أجهل إنه الليل البهيم ؟ .. الذى يفترش السماء بنجومهِ الصغيرة ، التى تبدو كقطع القطن المُتناثرة ، و قد أخذت تجمعها بأناملها الرقيقة ، لتصنع منها مشجبًا تزرعه بين خصلات شعرها الصب .

و عندما تعانق شفتاى الباردتين شفتيها المُدمتين أشعر بوطيس الحرب قد ُضرمت فى جسدىَّ ، و عندما تفترش شفتاى شفتيها ، لتلثمها فى حنان و حب و تجعلها حُبلى ، استطعم من بينهما شتى صنوف الفاكهة النضرة ، الطازجة ، فعندما تتلامس الشفاة فى

اضطرابٍ استطعم مذاق البرتقال ، و عندما تغوص الشفاة بعض الشئ لتتعانق استطعم مذاق الفراولة ، و عندما تتجرأ الشفاة و تلقى بالحياء خلف ظهرها لتندمج لتصبحُ كيانـًا واحدًا لا يفترق استطعم مذاق التفاح .

ربما ابصرتُ يومًا برج إيفل مطبوعًا على نهود فتيات باريس ، و لكنىَّ لمحت على جيدها هى تاريخ الكرة الأرضيةِ كله ، منذ حروب الهكسوس و تصدى الملك كاموس و أحمس لهم ، و مرورًا بالحرب العالمية الثانية التى أرخت لواءها لتغير من معالم العالم كله ، و ختامًا بالغائرين على جسدها البض ، و قد أمطروه بالرصاص و القنابل و رموه بالذخيرة الحية راغبين فى تشويههِ ، و لكنهم تناسوا أننىَّ سأبقى أعشقها و يعشقها الجميع .. على الرغم من جروح جسدها ، و آلام ضلوعها .. على جيدها أرى المسلمين ركعًا سجدًا و الخشوع يتملك منهم .

أراهم مُلتفين حول بعضهم البعض ، و القدس يفرد جناحيه ليحتويهم و يدثرهم بالتقوى و الإيمان .. و على خاصرها أرى بلال يُؤذن فى المسلمين .. حى على الفلاح .. حى على الجهاد و الإجتهاد .. لتصل عباراته إلى قلبِ رسول الله لتبشره أننا مازلنا على دينهِ ، و دين جدوده من الأنبياء و الرسل .

أرى فى قوامها قوام غزالا شاردًا يمرح فى الوديان ، قوامًا فاق قوام نساء فرنسا .

كل خلية فى جسدها ُكتب عليها تاريخ حياتىَّ بدمائىَّ و دماء أخوانىَّ ممن عشقوها ، و عشقوا التراب المُتوارى أسفل قدميها .. أحبك .. أحبك .

أحبك يا من ملكت عقلىَّ و قلبىَّ .. أعشقك رُغم كل ما ألم بكِ .. فما أصابك من كيد العوازل و الغيورين من سحر عيونك ...

فداك أبىَّ و أمىَّ ، و كل قطرة دم يجود بها جسدىَّ ...

لكم أعشقك يا فلسطين .. يا غصن الزيتون ، و مهد الأديان ...

لكم أعشقك .

المحتويات

أعمال الكاتب إسلام عامر على

أولا : الأعمال الإبداعية

- آهات العرب (مسرحية سياسية) ١٩٩٩
- صمت الليـل (مسرحية سياسية) ٢٠٠١
- نزق الثوار (رواية طويلة) ج١ ٢٠٠١
- الفليسوف و المرأة (مجموعة قصصية) ٢٠٠١
- قديسة التوراة (رواية طويلة) ٢٠٠٢
- توراة الفيطوان (مجموعة قصصية) ٢٠٠٢
- ثـامار (مجموعة قصصية) ٢٠٠٤
- رقصة المعبد الآخيرة (رواية طويلة) ٢٠٠٥

ثانيا : الأعمال الفكرية

- إرهاصات يهودية (مقالات) ٢٠٠٢
- موسوعة الداء و الدواء فى تفسير القضية الفلسطينية .. الجزء الأول .. (الرعيل الأول لبنى إسرائيل) ٢٠٠٣
- صمتا أيتها النساء (دراسات تأملية) ٢٠٠٤
- عجائب الكلام فى كتاب الأوهام (مقارنة أديان) ٢٠٠٥